# من جماليات التصوير
# في القرآن الكريم

محمد قطب عبد العال

الكتاب: من جماليات التصوير في القرآن الكريم

الكاتب : محمد قطب عبد العال

الطبعة: ٢٠١٧

الناشر: وكالة الصحافة العربية ( ناشرون)




٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com



دار الكتب المصرية
فهرسة أثناء النشر

قطب عبد العال ، محمد

من جماليات التصوير في القرآن الكريم / محمد قطب عبد العال
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

الترقيم الدولى: ٣- ٤٤٤- ٤٤٦- ٩٧٧- ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع:١١٩٠٣ /٢٠١٧

# من جماليات التصوير
# في القرآن الكريم





# مدخل

للتصوير في القرآن الكريم جمالياته الفنية التي تؤثر في العقل والقلب معًا، فهي تخاطب الذهن في أرقى عملياته الفكرية والإدراكية وتخترق كوامن الوجدان فترققه حتى يصبح صافيًا حيًّا ونابضًا متألقًا، ومن ثم يكون المنطق التأثيري آخذًا بالنفس البشرية متملكًا لجوانبها وأبعادها.

والتصوير ملمح أساسي في النص القرآني يتضافر في تحقيقه اللفظ برنينه الصوتي، والجملة بتراكيبها المتنوعة وبنغماتها الداخلية، والفاصلة بإيقاعها المتلائم مع النسق اللفظي والسياق العام، والمشهد الحي بتكريس التصوير فيه إلى التجسيد الحي حركة وتأثيرًا .. بل إنه ليترقرق عذب الإيقاع من آيات الأحكام والتشريع ...

وهذه المنظومة لجماليات التصوير تتوالى في سياق دلالي فتعطي للمعنى عمقًا وللهدف الديني نفاذًا إلى أعماق النفس البشرية فتهزها هزًا.

والقرآن الكريم يرسم الصورة، ويعرض المشهد بحيث تتوافر الجماليات في تناسق فني، فتتآزر الأشكال والجزئيات مع الدلالات المعنوية المصاحبة لتحقيق المقصد الديني والوجداني في وحدة تصويرية واحدة ..

إن التصوير في القرآن نمط في الأسلوب البياني بلغ حدّ الإعجاز، وكان تأثيره في النفوس نافذًا حتى الأعماق.

# الفصل الأول

- الجمال التصويري
- بين اللفظ والمعنى

يتبدي الجمال التصويري في القرآن الكريم شاملًا جوانب كثيرة تتآلف جميعًا لتعطي لنا هذه الجانب الغالب في القرآن، فالتصوير سمة واضحة الدلالة، وملمح أسلوبي متفرد، اتخذ تفرده من نفس العطاء اللغوي، ومع ذلك فهو ذو خصوصية متميزة، وهو نمط في الأسلوب البياني بلغ حد الاعجاز، وكان تأثيره في النفوس نافذًا ومخترقًا لإعماق النفس.

فثمة تناغم في الإيقاع الموسيقى ينساب من الحروف المتآلفة، والكلمات المتوازنة، والالفاظ – بما تحمله من دلالات في المعنى وايقاع النسق العام – تتلاقى في عبارات بحكمها رنين الايقاع وتتوالى منظومة الألفاظ في سياق دلالي – فتعطي للمعنى عمقًا، وللاداء تصويرًا ينفذ إلى القلب فيهزه، وإلى الوجدان فيرققه.

وتآلف المعاني مع الألفاظ، يُعطي التوحد في التعبير، ويُبرز الجانب الجمالي الكامن فيه، بحيث يبدو التكامل بين اللفظ والمعنى اندماج كامل في النسق والدلالة، (وكأن المعاني جاءت مؤاخية للألفاظ، وكأن الألفاظ قطعت لها، وسويت على حجمها)[١]

وجمال التعبير لا يتأتى من توالي الألفاظ أو العبارات، فمجرد السرد اللفظي لا يدل على جمال في ذاته، أو روعة في أدائه .. وإنما يتحقق ذلك من خلال التناسق في الدلالة، والتآلف في المعنى، والتناغم في النسق، فليست للألفاظ جماليات خاصة بها .. تلازمها كلما استخدمت، أو نُطق بها، فاللفظ لا

[١] القرآن المعجزة الكبرى .. محمد أبو زهرة ص ٩٥.

تكمن فصاحته وبلاغته في ذاته، فقد يجمل، وقد يقبح حسب الاسلوب وطريقة الأداء، فليس للألفاظ حسن ذاتي منفرد، وإنما حسنها يكمن في تآلف الدلالة وانسجام المعنى، مع تلاؤم في الحروف وبُعد التنافر، وتمايز في الصورة، وتواصل في الإيقاع ..

فإذا وجدت الألفاظ وفق المعاني، والمعاني وفقها، لا يفضل أحدهما على الآخر، فالبراعة أظهر .. كما يرى الباقلاني، والتوافق هنا ينسحب أيضًا على الجانب التعبيري الخاص بالصوت الموسيقي، والإيقاع المناسب .. فالحروف والكلمات والعبارات ألحان لغوية تبدو في ائتلافها وتآلفها كأنها قطعة واحدة.

إن كل لفظ قرآني له معناه الخاص به، يتجلى فيه هذا الإشعاع التصويري الجميل الذي عبر الجمل والتراكيب، فتتآخى المعاني وتتلاقى الألحان في انسجام وتوازن، ويصاحب ذلك كله الصور الخيالية الجميلة المنبثقة من هذا التآلف المنسجم، ومن هذا المعنى المطلوب.

واللفظ في القرآن له تفرده ودقته من حيث المعنى والدلالة والسياق، مما ينتفي معه الترادف .. وإن لاح الأمر من حيث الشكل .. فالسياق يضفي على اللفظ مصاحبات دلالية وتصويرية تعطيه ملمح التفرد والتميز ..

وثمة ألفاظ تردد متكررة في آيات القرآن الكريم، وتحمل دلالات متفردة لا تتعداها إلى غيرها من الدلالات التي يمكن أن يتصورها الإدراك الفكري – وتصبح متلائمة تمامًا مع المعنى والسياق الذي وردت فيه .. ومن ثم تصبح الدقة الدلالية في اختيار اللفظ ملمحًا اسلوبيًا متفردًا.

.. فمثلًا قد يتبادر إلى الذهن أن كلمتي "الرياح" و "الريح" بمعنى واحد، وأن الترادف قائم مشترك بينهما .. ولكن السياق القرآني استخدم كلا منهما في مجال تعبيري خاص ..

ولنلق نظرة على الكلمتين:

قال تعالى: (وَهُوَ الَّذي يُرسِلُ الرِّياحَ بُشرًا بَينَ يَدَي رَحمَتِهِ حَتّى إِذا أَقَلَّت سَحابًا ثِقالًا سُقناهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلنا بِهِ الماءَ فَأَخرَجنا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَراتِ كَذلِكَ نُخرِجُ المَوتى لَعَلَّكُم تَذَكَّرونَ)[١٢]

صدق الله العظيم

نحن أمام مشهد كوني، يتسم بالحركة والحياة والتدفق، والإنسان يستشعر من خلال حركة الأحياء هذا الإيقاع الجميل الذي ينتظم المشهد كله بجزئيات الصورة الثلاث .. الرياح – الماء – الثمرات .. صورة حسية متلاحمة في تماذج لا ينفصل .. تشهد برحمة الله وفعله، ولقد وردت كلمة "الرياح" في مقام الخير والرحمة والنعمة.

وتمثلت حركة الرياح في صورة حسية عاقلة تحمل البشرى وتستجيب لنداء الربوبية في عبودية مسخرة وفي استسلام كامل، تبشر برحمة الله، فتدفع أمامها في حركة متوازنة مقصودة سحابًا ثقيلًا ممتلئًا بالخير العميم الذي سرعان ما ينهمل ماءً يحمل النماء والحياة للأرض الجدباء فاقدة الخصوبة والنماء .. واذا بهذا الموات ينشق عن حياة بهيجة، وتنطلق النباتات من كل نوع وشكل، زاهية، متألقة، متخمة بالثمار.

---

[١] الاعراف آية ٥٧

وأمام هذه الصورة المشهدية الحية التي لا تخطئها عين ولا ينكرها عقل يأتي الربط بين الحياة الناشئة بقدر الله في الأرض وبين البعث يوم القيامة وفق قدر الله ومشيئته، ويرى الزمخشري في مجال الربط بين الحسي والمعنوي، أه (لا فرق بين الإخراجين إذ كل واحد منهما اعادة للشيء بعد إنشائه)[1].

ولقد تكرر هذا الربط بين الربط بين الحسي المشاهد والمعنوي المغيب في آيات كثيرة في القرآن الكريم، وكانت الصورة الحسية التي تبدأ (بالرياح) المبشرة بالنعيم والخير مدخلًا مدخلًا إلى تأكيد المعنى العميق وراء المشهد المحسوس كله .. ويصبح الموقف كله تدليلًا بالصورة والحركة والمعاينة على البعث والإحياء في الآخرة.

يقول ابن كثير (وهذا المعنى كثير في القرآن، يضرب الله المثل ليوم القيامة بإحياء الأرض بعد موتها، ولهذا قال .. لعلكم تذكرون)[2] .

ولقد وشت الألفاظ المكونة للحركة والصورة بالدلالة الدينية في إيقاع منسجم فألفاظ الصورة الكلية اولى هى: الرياح – سحاب – ماء – أرض موات – تمرات ..

أما الدلالة الدينية فوشى بها لفظ (نخرج الموتى) أي البعث، ولعلنا نلاحظ أن حركات التواصل في النماء على الأرض، مفصلة في حركة الحياة .. من حيث التطويل، والتجزئ والتتابع السببي .. الذي يغفله جميعًا قدرة الله ورحمته.

---

[1] الكشاف جـ ٢ ص ٦٦.

[2] مختصر ابن كثير، محمد علي الصابوني جـ ٢ ص ٢٧

أما الدلالة الدينية فقد جاءت قصيرة، موجزة، حاسمة لا تحتاج إلى شرح أو تجزئ أو تطويل، فدلالة القدرة على البعث لاح منها دلالة القدرة على الحياة في الأرض ..

(وإن القدر الذي يَجْرِي بإخراج الحياة من الموات في الدنيا، لهو ذاته القدر الذي يُجْرِي الحياة في الموتى مرة أخرى .. والناس ينسون هذه الحقيقة المنظورة، ويغرقون في الضلالات والأوهام)[١٣]

وهكذا رأينا كيف قامت كلمة "الرياح" بهذا الدور المبشر بالنعمة والرحمة في الحركة قدرية متواصلة، وكيف كانت مفتتح الحياة الحسية والمعنوية معًا.

.. ولنأخذ نموذجًا آخر يوضح الدلالة المعنوية القرآنية لاستخدام كلمة "الرياح" وكذلك الربط بين المشهد المحسوس والمعنوي المغيب.

قال تعالى: (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ)[٢].

.. الآية الكريمة وردت في سورة فاطر، وهى سورة لها نسقها الخاص في الموضوع والسياق العام، وهى ذات إيقاعات مؤثرة تهز القلب البشري وتوقظه من غفلته وهو يتأمل هذا الكون الفسيح ويتدبره قدرة الله وآياته المبثوثة فيه، وتستمد هذه الإيقاعات الموحية اتساقها من ينابيع الكون وهى تنطبع على صفحة القلب في مجتلى بصري محسوس فهذا الكون الهائل تتجلى فيه يد القدرة الإلهية .. وما الآية التي نحن بصددها إلا جزئية صغيرة من هذا الكون.

---

[١] الظلال ج ٣ ص ١٣٠٠

[٢] سورة فاطر آية ٩

فنحن أمام مشهد محسوس نرى فيه بعين البصر الرياح المرسلة، وهى ليست أية رياح وإنما هى الرياح التي تحمل في حركتها الخير والنعمة .. وتتحرك في جنبات الكون الفسيح فتحمل مع كل حركتها أولى بشائر الرحمة الإلهية .. وهى تثير السحاب، تجمعه وتكثفه، وتدفعه إلى بلد ميت، شاء الله له أن تدب فيه الحياة، وكما أحيا الله الأرض يحيى الموتى من القبور.

ولعل الإرتباط بين الحسي والمعنوي واضح تمامًا كما أدركناه في الآية السابقة، كما أن الهدف من هذا الربط يتمثل في لفت الذهن من المحسوس المشاهد الذي لا يختلف عليه أحد .. إلى المعنوي المغيب الذي يتجادل الناس حوله.

(روى الإمام أحمد عن أبي رُزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله: كيف يُحيي الله الموتى ؟، وما آية ذلك في خلقه ؟، فقال (أما مررت بوادي أهلك مُمحِلا، ثم مررت به يهتز خَضِرًا ؟، قلت: نعم يا رسول الله، قال: فكذلك يحيي الله الموتى، وتلك آية في خلقه)[١].

وهكذا تهتز الأرض وتربو وتخرج من كل زوج بهيج بعد موات وجدب، وكانت الرياح هى فعل الخير اول الذي ساق النعيم معه ..

وهذا المشهد يتردد في معرض دلائل الإيمان الكونية في القرآن لأنه واقع ملموس، ولأنه يهز القلب حين يخترقه الجمال، فيسعى إلى تلمس المشاعر النيرة وراء المشهد بما يحمله من بهجة وزينة وثمر .. وبما يوحي به من عقيدة البعث التي لا تحتاج إلى مكابرة جاهل أو عناد مشرك غافل.

---

[١] صفوة التفسير جـ٢ ص٥٦٧

(والقرآن يتخذ موحياته من مألوف البشر المتاح لهم، مما يمرون عليه غافلين، وهو معجز معجب حين تتملاه البصائر والعيون)[1].

ونلاحظ في الآية وصف الرياح بالإثارة، كما وصفت في الآية السابقة بالبشرى .. فتحددت الدلالة في الأولى تحديدًا واضحًا، مما استدعى التفصيل والتجزيء، أما في الآية التي نحن بصددها، فنلمس إيجازًا واضحًا في متواليات حركة النمو .. حيث تحددت في جزئيات ثلاثة رياح/ سحاب/ إحياء الجدب .. وكأنما الآية تسرع لتأكيد الفكرة الدينية والتي تسعى إلى إبرازها الآية .. وهى "النشور" .. ومن ثم جاءت "النشور" بالمعنى المراد تمامًا .. وهو البعث – في حين كان إخراج الموتى – صورة فعلية حركية تحدد المراد أيضًا وهو البعث .. وفي مجال دلالة الماضي والمضارع في الآية .. من حيث إن .. المضارع "تثير" توسط بين الماضي في "أرسل" و "أحيينا" .. يقول صاحب الكشاف، مبررًا هذا التناول في زمن الفعل، فبين أنه جاء على هذا الوضع (ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب، وتستحضر تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية، بحال تستغرب أو تهم المخاطب)[2] ولاشك أن إرسال الرياح وسوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بالمطر بعد الجدب من الدلائل على القدرة الإلهية الباهرة، فتلاءم زمن الماضي معها من حيث الإرسال والإحياء، ذلك لأنه أدخل في الاختصاص وأدل عليه .. ومن ثم يتحدد التشبيه (كذلك النشور) وتنكشف الدلالة الدينية العميقة وراء المشهد ككل.

---

[1] الظلال جـ٥ ص ٢٩٢٩.

[2] الكشاف جـ٣ ص٢٦٩.

كما أن لفظ "يثير" يوحي بملحظ علمي يرى أن حركة الرياح بين السخونة والبرودة وبين حركتها الصاعدة والهابطة وسيلة لتكثيف البخار، وتثقيله سحابًا ممتلئًا بالماء، يتساقط لتكتمل دورة الحياة من جدبد .. رياح، سحاب، ماء، أرض .. وهكذا ..

.. ومع أن الآيتين قد ربطت بين الحسي والمعنوي وأبرزتا دلالة الخير والنعمة والرحمة إلا أن كلمة "الرياح" قد تأتي دون أن يكون هناك هذا الربط، بل تكتفي بدلالة المعنى فيها ..

قال تعالى: (وَأَرسَلنَا الرِّياحَ لَواقِحَ فَأَنزَلنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَسقَيناكُموهُ وَما أَنتُم لَهُ بِخازِنينَ)[1].

وقال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)[2].

وقال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا)[3].

في آية الحجر توضيح لفعل الرياح وأثره العميم على الناس، فالماء نعمة كبرى أنعم بها الله على مخلوقاته، ودور الرياح في إحداث هذه النعمة لا ينكر، والرياح تنطلق وفق نواميس كونية، حاملة الماء وفقًا لها أيضًا، ثم يتساقط الماء، فيعم الخير، ويصير هذا الماء الساقط من السحاب الملقح، ماءً عذبًا صالحًا للشرب والسُّقيا.

---

[1] سورة الحجر الآية ٢٢.

[2] سورة الروم الآية ٤٦.

[3] سورة الفرقان الآية ٤٨.

ثم تظهر الآية القدرة الإلهية في خزنه وحفظه وعجز البشر عن ذلك .. فنعمة الماء التي بشرت بها الرياح وأحدثتها إنما هو قدر الخالق الذي أبدع خلقه.

ولعلنا نلاحظ حَضْرَ النعمة في الماء .. وهنا ملحظ علمي وراء تعبير "الرياح لواقح" فهي تشير إلى تلقيح السحابة السالبة بالسحابة الموجبة، فالملاحقة هنا بين سحاب ينتج عنها كهرباء .. فكأن الملاحقة وسيلة لتكثيف السحب ثم انهمارها .. وتلفتنا الآية إلى أهمية الرياح في حركتها وهبوبها في تلقيح النباتات – وكل ذلك نعم إلهية، منها إفادة الكائنات الحية من التسيير، فاللقاح ينتج الماء، كما يساهم في إخصاب البذور والنباتات والزهر، فيبدو الجمال والمنفعة معًا (آية الروم) فيتذوق الإنسان جمال الكون والطبيعة ويذوق من خيراتها الحسية ما يمتعه ويسعده، كما تعطي الآية ذاتها نعمة الحركة والتواصل والإنتقال بفعل الحركة المنبعثة من هبوب الرياح، فتمخر السفن البحار في حركة دائبة .. فيحقق الناس ما يحبون مما يتوجب شكرهم على نعم الله.

.. وقد يعطي السياق القرآني دلالة مغايرة للمعنى المراد .. فتصبح الرياح وقفًا على حركتها الذاتية إذ تعطي المعنى الحسي وهو الحركة .. مجرد الحركة .. وهي نعمة تقف وراء حركة التسيير كلها .. برغم تجرد السياق من نعم أخرى كالمطر والإخصاب والإحياء المرتبطة بالرياح.

قال تعالى: ﴿وَاضرِب لَهُم مَثَلَ الحَياةِ الدُّنيا كَماءٍ أَنزَلناهُ مِنَ السَّماءِ فَاختَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرضِ فَأَصبَحَ هَشيمًا تَذروهُ الرِّياحُ وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيءٍ مُقتَدِرًا﴾[1].

---

[1] سورة الكهف الآية ٤٥

يهدف القرآن الكريم من خلال استخدام التشبيه إلى التصوير والتأثير معًا، ومفردات الصورة الجمالية هنا مستقاة من الطبيعة بعناصرها المختلفة، والدقة في التشبيه تعطي للمعنى وضوحًا وتأثيرًا نفسيًا قويًّا.

والصورة التي أمامنا تتناول حال الدنيا الفانية بحال النبات وقد جف فأضحى هشيمًا تطيره الرياح، ولكن "الرياح" كعنصر فاعل في الصورة يعطي سرعة الحركة الدالة على سرعة الزوال والتلاشي،فإذا كانت الرياح سابقًا عنصرًا بناءً للحياة في بهجتها ونمائها وجمالها، فهي هنا تحمل دلالة تلائم السياق العام الذي تضمنته الصورة الجميلة.

فالمشهد الطبيعي كله مشهد سريع لا يستغرق الطول أو التفضيل، ولكنه قصير كأنه يمر أمام العين كلمحة .. تلك اللمحة التي تتأكد باختزال الصورة لكل أنواع التفصيل والتجزئ وتجريدها من مكونات الصورة بامتدادها الزماني وتراخيها في التتابع الزمني والمكاني .. والإبقاء على العناصر الملائمة للهدف الديني .. وهو سرعة زوال الحياة وفنائها.

فالماء ينزل .. نزولًا حركيًا يتلاءم مع الحركة الكلية للصورة، والنبات يختلط مجردًا اختلاط في حركة تداخل، تعطينا النتيجة فجأة باختزال حاسم للحركة في الزمن، لنصل إلى النتيجة وهو الهشيم .. ليأتي دور الرياح في حركة حاسمة مقصودة قوية تذوره هباءً، فالسياق كله حركة، ومن ثم حملت الرياح معنى الحركة فقط .. وساهمت في معنى القصر وسرعة التلاشي، وبيان قدرة الله على الإفناء والإحياء، لا يعجزه شيء في الأرض أو السماء.

يقول الزمخشري في توضيح الصورة التشبيهية "شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها، وما يتعقبها من الهلاك والفناء بحال النبات يكون أخضر وارفًا ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن"[1].

ولقد توافر للصورة التعبيرية كل عناصر الجمال التعبيري من صدق ودقة وجمال فني، وبرز الجمال الفني في دقة التعبير عن السرعة الخاطفة المثيرة لمدركات الخيال.

" وقد استخدام النسق اللفظي في تقصير عرض المشهد كما استخدمت وسائل العرض الفنية لهذا الغرض، فهذا "التعقيب" الذي تمثله هذه "الفاء" في تتابع المراحل، يتفق مع طريقة العرض السريعة، ثم هذا الماء النازل لا تختلط به الأرض فتنبت، بل يختلط به نبات الأرض مباشرة، وهذه حقيقة، ولكنها حقيقة تعرض في الوضع الخاص الذي يحقق السرعة المطلوبة)[2].

وأما كلمة الريح فقد وردت في السياق القرآني واشية بمعنى عام محدد صاحبها في الإنسان التي وردت بها .. وهو معنى غالبًا ما يرد في مقام العذاب، والتخويف .. إنه كلمة تحمل الخوف، الشر، والدمار، تسلط على الجاحدين فتحيلهم إلى أعجاز نخل خاوية.

"ان ريح الشر، تهب مدمرة عاصفة، لاتهدأ، ولا تدع الناس يهدأون، فهى لاستمرارها ريح واحدة، لايشعر الناس فيها بتحول ولا تغير، ولا يحسون بهدوء

---

(1) الكشاف جـ٢ ص ٣٩٢.

(2) التصوير الفني – سيد قطب ص ١٢٩.

يلم بها، فهي متصلة في عصفها وشدة تحطيمها، وذلك مصدر الرهبة منها والفزع"[1].

.. قال تعالى: (وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ)[2] .

وسورة الحاقدة يتلقاها القلب البشري بهزة نفسية عميقة، فيها الهول الذي يفرع النفوس، بمشاهدة المتوالية، واسلوب الصورة يحاصر الحس ويحتويه .. ونحن أمام مشهد يرمي بالرعب، في القلوب، وجاءت الألفاظ موحية بكل هذا الرعب، وبدت الصورة الخيالية أكثر تجسيما وإبانة ..

فها هم قوم هود – عاد – قد أهلكهم الله سبحانه بالريح العاصفة ذات الصوت المدوي ولقد تجاوزت بعتوها الحد في الهبوب والبرودة، واستمرت هذه الريح متتابعة حتى أحالت القوم جيفًا متآكلة كأنهم أصول نخل خاوية.

قال المفسرون: كانت الريح تقطع روءسهم كما تقطع رؤوس النخل، وتدخل في أدبارهم حتى تصرعهم، فيصبحوا كالنخلة الخاوية الجوف.

ومصرع عاد مشهد حاضر شاخص يصاحبه هول مروع يسيطر على جنباته، وكانت السيادة في المشهد للريح العاصفة المزمجرة التي أتت على كل شيء .. ومن ثم تأكد معنى التخويف والعذاب والنقمة التي تشي بها كلمة الريح، فأعطت للمشهد حيويته وهوله معًا.

---

[1] القافلة عدد جمادي الآخرة ١٤١١، دلالات الألفاظ القرآنية د. حامد صادق.

[2] سورة الحاقة الآية ٦، ٧

"إنه مشهد حي، مائل للقلب، مائل للعين، مائل للخيال"[١].

ويتأكد هذا المغنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾[٢].

فالريح العاصفة شديدة البرودة والهبوب تحمل العذاب لعاد .. في يوم مشئوم دائم الشؤم فلم يبق أحد إلا هلك.

قال الخازن: كانت الريح تقلعهم ثم ترمي بهم على رؤوسهم فتدق رقابهم وتفصل رؤوسهم من أجسامهم فتبقى أجسامهم بلا رؤوس كعجز النخلة الملقاة على الأرض[٣].

وجرس اللفظ في الآية الكريمة يصور نوع الريح في عنفهما وبرودتهما وعصفهما الشديد.

والريح التي أرسلت على عاد هى من جند الله، وهى قوة من قوى هذا الكون تسير وفق الناموس الكوني، يسلطها الله على من يساء وفق أداء كوني يتلاءم مع المشيئة الإلهية ..

والتشبيه يصور عذاب الله تعالى تصويرًا مشهودًا وكانت "الريح" الأداة الفاعلة، لقد انتزعتهم كما تنزع جذور نخل غاصت في أعماق الأرض .. فأحدثت للتشبيه هوله وبريقه وعنفه (هذا بريق التشبيه المرعد الذي يصور ما ينزل بالمشركين الذين طغوا في البلاد وأكثروا فيها الفساد)[٤].

---

[١] الظلال جـ٦ ص٣٦٧٦

[٢] سورة القمر الآية ١٩ ، ٢٠

[٣] صفوة التفسير جـ٣ ص ٢٨٦

[٤] القرآن المعجزة الكبرى محمد أبو زهرة ص ٢٤٨.

وترد كلمة "الريح" في سياق تشبيهي يعقد علاقة حميمة بين المعقول المعنوى الديني المقصود .. ولا تتخلى الكلمة عن دلالتها المقصودة .. وهو الإهلاك والتدمير ..

قال تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَـٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّـهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[١].

فالريح تحمل الدمار والهلاك للحرث والزرع والضرع حتى تحيله إلى هباء، ومن ثم تساهم بحركتها العاصفة الباردة الشديدة في إبراز المعنى المراد، وهو أن العمل المبذول – وإن ظنه الكافرون خيرًا – لا يؤتي ثمره ما لم يكن نابعًا من الإيمان وموصولًا به. "واللفظة ذاتها كأنها مقذوف يلقي بعنف فيصور معناه بجرسه النفاذ".

وقريب من هذا الأداء التصويري الجميل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذينَ كَفَروا بِرَبِّهِم أَعمالُهُم كَرَمادٍ اشتَدَّت بِهِ الرّيحُ في يَومٍ عاصِفٍ لا يَقدِرونَ مِمّا كَسَبوا عَلى شَيءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ البَعيدُ ﴾[٢].

فأعمال الكافرين وإن جاءت تحمل الرغبة في الخير، أعمال محبطة، لا فائدة ترجى منها، ولا يعود على أصحابها ثواب أو جزاء، مثلها في ذلك مثل الرماد الهش الذي لا يصمد أمام قوى الريح العتية فيتلاشى هباءً منثورًا.

---

[١] سورة آل عمران الآية ١١٧

[٢] سورة أبراهيم الآية ١٨.

ولقد صورت الآية هذا المعنى الديني تصويرًا حسيًا جميلًا يثير مدارك الخيال، لنقف على حالة الضياع والتلاشي بفعل الريح العاصفة وهى تذرو الرماد وتذهب به بردًا.

وتغيرت دلالة "الريح" .. في سورة الأحزاب .. حيث كانت نعمة على المسلمين، ونقمة على الكافرين .. وهى في مجال النقمة لا تزال تحمل المعنى الأصلي للتخويف وبث الهول والدمار.

قال تعالى: ( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا)[١].

والآية تذكر المؤمنين بفضله وإنعامه عليهم في غزوة الأحزاب، حيث حشد الكافرون جنودهم صوب المدينة، فاشتد الخوف بالمؤمنين وظنوا ظنونًا كثيرة، ولاح النفاق في قلوب المنافقين حتى قال بعضهم: يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر أن نذهب إلى الغائط، ويدرك الله المؤمنين برحمته فيرسل على الأحزاب ريحًا شديدة عاصفة قلعت البيوت، وكفأت القدور، وألقت من شدتها بالرجال على الأرض، كما أرسل الملائكة فزلزل الكافرون زلزالًا شديدًا.

لقد كانت الريح عنصرًا حاسمًا في المعركة فكانت نعمة، ونقمة في آن واحد، وجاء لفظ الريح نطرة "ريحًا" وهذا التنكير يفيد التعذيب العام المصاحب للكلمة مع ما يصاحبه من دلالات أخرى كالتخويف، والإهلاك والتدمير، ولتأخذ في سياق المعركة دورها الفاعل كأحد العناصر الفعالة في الحرب، ولتصبح جُندًا من نوع آخر، وتلاءم هذا التنكير مع "جنودًا لم تروها" وهم الملائكة، والذي

---

[١] سورة الأحزاب الآية ٩.

يفيد أيضًا التعظيم، والتهويل، والتخويف، وذلك كله إشعاعات نابعة من موقف الحرب والعراك، ومتناسقة تمامًا مع السياق والنسق العام.

وقد ترد الريح في معنى النعمة فقط، ومن ثم تنسلخ اللفظة انسلاخًا تامًا من المعنى الدلالي الذي اتخذته، كما رأينا سابقًا، ولكن ذلك يأتي في مجال الإرادة الأهلية حين تمنح رسولًا من الرسل ميزة يتفرد بها .. فتصبح "الريح" إحدى المنظومات الكونية التي سخرها الله لرسوله، وهذا التسخير إنما هو توظيف للقوة في مجال النعمة، وتسخير لأداة التدمير في مجال الفضل والمنّة، وهذا تغيير لمفردات طبيعية بفعل الإرادة الإلهية ..

وهذا أبين للنعمة وأظهر للمنة (فإن الشيء إذا توقع منه الشر والأذى، ثم اقترن ذلك بالنفع والخير، كان المن به أعظم، والإنعام فيه أظهر، بخلاف ما كان مظنة خير ورحمة، فإنه وإن كان مبهجًا، إلا أنه لا يصل إلى إبهاج ذلك الذي توقع الشر منه، حيث يكون مصدر نعمة)(1).

قال تعالى: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ)(2).

وقال تعالى: (فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَاب ) (3).

.. لقد سخر الله لسليمان الريح تقطع به المسافات الشاسعة في ساعات معدودات تحمله مع جنوده فتنتقل به من بلد إلى بلد .. وتنوعت الدلالة في آية ص بالقيد الذي ورد وهو رخاءٌ .. فالرخاء لغة هى الريح اللينة، والمعنى يتضاد مع

---

(1) القافلة .. مصدر سابق

(2) سورة سبأ الآية ١٢

(3) سورة ص الآية ٣٦.

العصف الشديد، والرخاء – سياقًا – الانقياد حسب الإرادة والمقصد، وهو مأخوذ من معنى التسخير الذي منَّ الله به على سليمان عليه السلام، والمعنى أن الريح تسير بأمره منقادة لينة طيبة حيث قصد وأراد، إلا أن "تسخير الريح لعبد من عباد الله بإذن الله، لا يخرج في طبيعته عن تسخير الريح لإرادة الله، وهى مسخرة لإرادته تعالى ولاشك تجري بأمره وفق نواميسه، فإذا يسر الله لعبد من عبادة في فترة من الفترات أن يعبر عن إرادة الله سبحانه وأن يوافق أمره أمر الله فيها، وأن تجرى الريح رخاء حيث أراد، فذلك أمر ليس على الله بمستبعد[1].

كما أن الريح قد يتحدد معناها المغاير للمعنى الأصلي بصفة تحددها، بحيث يتلاءم المعنى مع السياق العام[2].

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذي يُسَيِّرُكُم فِي البَرِّ وَالبَحرِ حَتّى إِذا كُنتُم فِي الفُلكِ وَجَرَينَ بِهِم بِريحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحوا بِها جاءَتها ريحٌ عاصِفٌ وَجاءَهُمُ المَوجُ مِن كُلِّ مَكانٍ وَظَنّوا أَنَّهُم أُحيطَ بِهِم دَعَوُا اللَّهَ مُخلِصينَ لَهُ الدّينَ لَئِن أَنجَيتَنا مِن هـذِهِ لَنَكونَنَّ مِنَ الشّاكِرينَ﴾[3].

فالريح الطيبة هى الريح اللينة الطرية التي تساعد على تسيير السفن في هوادة واطمئنان، الأمر الذي يستدعي الفرح والشعور بالأمن.

ولكن سرعان ما يتغير المشهد إلى عنف وقصف وموج وخوف، فيعود للريح مرة أخرى الدلالة المصاحبة لها وهو التخويف والتعذيب والإهلاك ..

---

(١) الظلال جـ٥ ص ٣٠٢٠

(٢) انظر تفصيل آيات القرآن ص ٥٠٥

(٣) سورة يونس الآية ٢٢.

والتدمير مما يوحي بالهلاك والموت، فيتحول الأمان إلى خوف ويتوجه القوم إلى أن ينجيهم من هذا الكرب.

وما بين الفرح والخوف – الريح الطيبة والريح العاصفة – يتحدد نموذج بشري ورد ذكره كثيرًا في القرآن .. إذ تتحدد الطبائع بعد تذوق رحمة الله بعد الضر .. وحين يصيبهم الضرر ينجون منه .. ويبرز هذا النموذج عبر مشهد قوى من مشاهد القرآن التصويرية، إنه مشهد حي تراه العيون وتتابعه المشاعر وتخفق معه القلوب، ولقد قامت حركة الريح بهدؤها وعصفها بدور فعال في إبراز ذلك كله.

# الفصل الثاني

- التنوع والوحدة.

في إطار المشهد التصويري الذي يشع جمالًا وجلالًا – وهو جانب تصويري هام في القرآن الكريم – تتضح عناصر البناء وهى تتلاصق أو تتضاد أو تتوازى ثم تلتحم العناصر جميعها مكونة من الشكل العام للمشهد أو الوحدة الكلية التي تحتويه، وكل عنصر من عناصر البناء يحمل دلالته الخاصة التي تتنامى في انسجام مع دلالات العناصر الأخرى: بحيث يعطي الجزء دوره الفاعل في إتمام الصورة المشهدية الكلية، ومن ثم يبرز من خلال المعنى العام هذا التوافق الموجود بين العناصر، فتشكل العلاقة القائمة بين الجزئيات مما يترتب عليه تحقق الانسجام، وتتأكد الوحدة في المشهد والصورة، والجمع بين الأشكال والجزئيات والدلالات وسيلة لتحقيق الوحدة، ومتى توفر ذلك فسوف يتيح للمتأمل أن يرى الصورة والمشهد ككل للوهلة الأولى ثم يتدرج نحو رؤية الجزء، وحين تتحقق الوحدة عن طريق الفكرة والأداة التعبيرية تكون في أوج قوتها.

فالقرآن الكريم يرسم الصورة ويعرض المشهد بحيث تتوافر له جماليات التناسق الفني في وحدة المشهد التصويري وتوزيع أجزائه في توازن وتقابل دقيقين.

والوحدة التصويرية تقتضي التنويع ليتم التناسق مع الأجزاء، (ودلالة هذا التنويع حاسمة في أن (التصوير) عنصر أساسي في أسلوب القرآن وأن التعبير لا ينتهي إلى أداء المعنى الذهني مجردًا، إنما ينبض بطبيعته بصورة حية للمعاني، تختلف هذه الاختلافات الدقيقة اللطيفة، حسب اختلاف الأجزاء والألوان)[1].

[1] التصوير الفني في القرآن ١١٩.

واستخدام القرآن الكريم للفظ كعنصر جزئي استخدامٌ فذٌّ يتلاءم مع وحدة السياق إذ يتحدد دور الكلمة من خلال المعنى العام الذي تحتشد كل العناصر لإبرازه، ومن ثم تتغير وظيفة الكلمة كأداة فنية تعبيرية حسب الوحدة التصويرية التي تنضوي في إطارها العام ..

وفي مجال صور النعمة التي أفادها الله على الإنسان وردت كلمة "الأنعام" متسقة تمام الاتساق مع الوحدة التصويرية الكلية، بحيث يتنوع استخدامها الوظيفي بتنوع الوحدة الحسية في المشهد .. ومن ثم تكشف عن المراد.

قال تعالى: (وَالأَنعامَ خَلَقَها لَكُم فيها دِفءٌ وَمَنافِعُ وَمِنها تَأكُلونَ ﴿٥﴾ وَلَكُم فيها جَمالٌ حينَ تُريحونَ وَحينَ تَسرَحونَ ﴿٦﴾ وَتَحمِلُ أَثقالَكُم إِلى بَلَدٍ لَم تَكونوا بالِغيهِ إِلّا بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُم لَرَءوفٌ رَحيمٌ)[1].

والأنعام – الإبل والبقر والغنم والماعز – نعمة من نعم الله، وهى إحدى النعم في منظومة النعم الإلهية في الكون كله .. السماء، والبحر، والبر ..

والأنعام – وقد وردت في نسيج هذه المنظومة – يتحدد معناها العام وفق النسيج كله، فهى تفيد المنفعة والجمال معًا.

فهى من حيث المنفعة – ضرورة الحياة – يستدفئ بها الإنسان، فمنها يأكل ويشرب ويلبس، كما أنها وسيلة للإنتقال والعمل فتريح الناس من المشقة وثقل الأعباء، أما الجمال فيتبدى في زينة المنظر والاستمتاع به ..

---

[1] سورة النحل الآية ٥ – ٧

والآيات التي وردت فيها كلمة الأنعام كلها تجمع بين المنفعة والجمال[1].

وآية "الأنعام" تعير عن رحمة الله بعباده حين سخر لهم ذلك كله، وأشارت الكلمة إلى ثنائية المنفعة والجمال معًا.

يقول الزمخشري "مَنّ الله بالتجمل بها كما مَنّ بالإنتفاع بها، لأنه من أغراض أصحاب المواشي، بل هو من معاظمها، لأن الرعيان إذا روّحوها بالعشي، وسرحوها بالغداة فزينت بإراحتها وتسريحها الأفنية، وتجاوب فيها الثغاء والرغاء، آنست أهلها وفرحت أربابها وأجلّتهم في عيون الناظرين إليها، وأكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس)[2].

وهذا هو دور الأنعام في حياة الناس أدته اللفظة أداءً كاملًا في سياق إبراز منظومة النعم الإلهية .. فالخيل وغيرها منفعة وجمال، وهى نعمة، والماء والشجر والزرع والنخيل والزيتون منفعة وجمال، وهو نعمة، والسماء بنجومها وسحابها وكواكبها وليلها ونهارها .. منفعة وجمال .. وهى نعمة .. والبحر، والسمك، واللآلئ والفلك والموج .. منفعة وجمال .. وهو نعمة .. ويمضي السياق طويلًا في إبراز هذه الوحدة الكلية التي تبرز النعمة الإلهية الكبرى التي أنعم الله بها على البشر .. بحيث تكشف مع المنفعة الجمال والتذوق .. وتتضافر عناصر الوحدة في السماء والبر والأرض لإبراز هذا المعنى، فتصبح المفردات عناصر بنائية للإبراز هذا المشهد الكوني الهائل، من حيث تناسق

[1] انظر الأنعام آيات ٥ – ١٨

[2] الكشاف جـ٣ ص٣٢٢

**النواميس في الكون كله، ولينتهي السياق الطويل بتذكير الله للبشر بنعمه التي لا تعد ولا تحصى، (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم)[1].**

**والآيات تستعرض خلق الله الذي سخره للإنسان، وبدأت بالأنعام لما لها من أهمية في حياة البشر، فلا حياة بدونها لبني الإنسان.**

**والقرآن وهو يعرض هذه النعمة ينبه إلى ما فيها من تلبية لضرورات البشر، وتلبية لحاسة الجمال "فالجمال عنصر أصيل في هذه النظرة، وليست النعمة هى مجرد تلبية الضرورات من طعام وشراب وركوب، بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات من طعام وشراب وركوب، بل تلبية الأشواق الزائدة على الضرورات، تلبية حاسة الجمال ووجدان الفرح والشعور الإنساني المرتفع على ميل الحيوان وحاجة الحيوان)[2].**

**وهذه النعم – بما فيها نعمة الأنعام – مدعاة إلى التأمل والتفكير في تدبير الله، وفي نواميسه المسخرة لحياة البشر، ودلالة ذلك كله على الخالق وعلى وحدانيته وهو المعنى الديني العميق الذي يكشف عنه السياق كله.**

- **وعبرة أخرى للأنعام تشير إلى عجيب صنع الله، إذ وردت الكلمة في سياق آخر من النعم تضمنته الآيات ٦٦ – ٦٩ "النحل" وهذا السياق يدعو إلى تفهم العبرة في النعمة، وإلى تأمل قدرة الله وتدبيره.**

**قال تعالى (وَإِنَّ لَكُم فِي الأَنعامِ لَعِبرَةً نُسقيكُم مِمّا في بُطونِهِ مِن بَينِ فَرثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خالِصًا سائِغًا لِلشّارِبينَ)[3].**

---

[1] سورة النحل الآية ١٨

[2] الظلال جـ٤ ص ٢١٦١.

[3] سورة النحل الآية ٦٦.

والسياق الذي وردت فيه "الأنعام" سياق تحول واستخراج، وعمليات امتصاص وتحويل واحتراق، ثم إفراز سائل جديد يحمل سمات خاصة وطعمًا مميزًا.

فالجهاز الهضمي يقوم بهضم الغذاء وامتصاص الصالح منه، وهذا الجزء الصالح منه يذهب إلى الدم فيختلط به، والجزء الآخر يتحول إلى روث وهو الفرث، والدم يغذي الغدد التي منها اللبنية (ضرع الحيوان) المنوط بها إفراز اللبن .. فقدرة الله بارزة في شطرين الدم والفرث وأخرج من بينهما اللبن خالصًا من كل شائبة، ناصعًا طاهرًا، لم يؤثر فيه لون الدم أو قذارة الفرث[1].

والآية بيان للعبرة فإن الله سبحانه يخلق اللبن "وسطا بين الفرث والدم يكتنفانه وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله، لا يبغي أحدهما عليه بلون، ولاطعم، ولارائحة .. فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل"[2].

ويمتد مشهد الأشربة في السياق كله .. فالسكر "العصير" يستخرج من الثمار، فمن ثمرات النخيل النخيل والأعناب، يتخذ الناس منه السكر والرزق الحسن، يأكلون بعضه ويتخذون من بعضه سكرًا.

وعسل النحل شراب جعله الله شفاء للناس، يخرجه النحل خلاصة لما يتغذى به، فالعسل يختلف لونه باختلاف الأزهار التي يرتشف النحل رحيقها، والعسل هو الغذاء الوحيد المعقم طبيعيًا، وذلك بعد أن تطبخه النحلة في مطبخها العجيب.

---

[1] انظر معجزة القرآن – نعمت صدقي ص ٧٣١٧٢

[2] الكشاف جـ٣ ص ٣٣٤

وعن عبد الله بن مسعود "العسل شفاء من كل داء، والقرآن شفاء لما في الصدور، فعليكم بالشفائين: القرآن والعسل".

إننا أمام وحدة من النعم متناسقة .. فالسياق يرسم مشهدًا لإستخراج الأشربة، اللبن، والسكر، العسل ..

ولقد أدت لفظة الأنعام دورها في هذا السياق التصويري حيث عرض المشهد التصويري جانبًا من الأنعام يلائم الأشربة التي هى عناصر هذا المشهد في وحدته التصويرية الكلية ..

وتوافقت جزئيات الصورة فأحدثت هذا التناسق الجميل بين العناصر من حيث حركة الفعل الباطنية المخالفة للهيئة الخارجية، فثمة سكر وشراب يتخلص من ثمار تختلف في الهيئة والطبيعة عن السكر، والعسل يُستصفى من الأزهار المخالفة في هيئتها وطبيعتها للعسل .. ومن ثم كان اللبن المستخرج من فرث ودم، وهما مخالفان في هيئتهما وطبيعتهما للبن.

"ألا أنه الإبداع هنا في وحدة الأجزاء ودقة التصوير، وتناسق الاخراج"[١].

إنها كلها أشربة تخرج من أجسام مخالفة لها في شكلها .. ولما كان الجو جو أشربة فقد عرض من الأنعام ما يلاءم ذلك وهو اللبن.

● وردت الأنعام في سورة "المؤمنون" كعنصر من عناصر الوحدة الكلية التي تنتظم نعم الله وفضله، كخلق الإنسان وخلق السموات وإنزال الماء وإنبات النخيل والأعناب والزيتون، ثم نعمة الأنعام بما تتضمنه من العبرة المستفادة من إدراك اللبن ومن المنفعة التي تتحقق منها.

---

[١] التصوير الفني في القرآن ص ١٢٢

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[1].

لقد جمعت آية (المؤمنون) بين المنفعة والعبرة، ووردت في سياق منظومة النعم في تناسق بديع، فاللبن السائغ هو شراب للناس وغذاءٌ لهم فضلًا عن المنفعة المرتبطة بحياة البشر، ويرى صاحب الكشاف أن الأنعام منفعة زائدة (وهى الأكل الذي هو انتفاع بذواتها، والقصد بالأنعام إلى الإبل / لأنها هى المحمول عليها في العادة وقَرَنَها بالفلك .. )[2]، فالسياق ربط بين الأنعام والفلك إذ هما مسخران بنظام كوني خلقه الله لخدمة البشر ومن ثم تتحقق العبرة لمن يتأمل قدرة الله وفضله في الكون.

.. كما تتنوع الدلالة لتتلاءم مع وحدة كلية ذات نسق عام، فهى وإن دلت على تعداد المنافع المرجوة من الأنعام إلا أن الجزئية تتناغم مع غيرها من مكونات الوحدة وعناصرها البنائية.

فهى تأتي في مجال الدلالة الدينية التي تتحدث عن طبائع الإنسان وموقفه من النعمة، وجحوده لها، وهى دلالة متكررة في مجال تذكير الإنسان لنعم الله عليه وغفلته وجحوده عن هذه النعم.

قال تعالى: ﴿يَعرِفونَ نِعمَتَ اللَّـهِ ثُمَّ يُنكِرونَها وَأَكثَرُهُمُ الكافِرونَ﴾[3]، وتأتي "الأنعام" في سياق بناء كامل يمثل السكن والإيواء والحماية .. وتنوعت مفردات الوحدة لتقيم هذا البناء الشامخ وهو يلقي بظلال الأمان والسكينة ..

---

[1] سورة المؤمنون آية ٢١.

[2] الكشاف جـ٣ ص ٤٥

[3] سورة النحل الآية ٨٣

قال تعالى: (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِن بُيوتِكُم سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِن جُلودِ الأَنعامِ بُيوتًا تَستَخِفّونَها يَومَ ظَعنِكُم وَيَومَ إِقامَتِكُم وَمِن أَصوافِها وَأَوبارِها وَأَشعارِها أَثاثًا وَمَتاعًا إِلى حينٍ ﴿٨٠﴾وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمّا خَلَقَ ظِلالًا وَجَعَلَ لَكُم مِنَ الجِبالِ أَكنانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرابيلَ تَقيكُمُ الحَرَّ وَسَرابيلَ تَقيكُم بَأسَكُم كَذلِكَ يُتِمُّ نِعمَتَهُ عَلَيكُم لَعَلَّكُم تُسلِمونَ)[1].

والمشهد الذي تصوره الآيات يتناول البيوت والأمتعة ومخابئ الجبال والسرابيل، والجلود المأخوذة من الأنعام وكذلك ظلال الأشياء.

والحديث عن البيت حديث خاص، إنه البيت الذي يشي بالسكن والطمأنينة، ويمس مشاعر الإنسان من حيث .. السكينة النفسية – والطمأنينة القلبية، ولأن المشهد وحدة كلية واحدة، تتمثل عناصرها في البيوت والأكنان والسرابيل .. "فإن السياق يعرض من الأنعام جانبها الذي يتناسق مع مفردات المشهد)[2].

إن في البيت لسكنا، وفي الظلال راحة للنفس من وقدة الحر، وفي الأكنان والكهوف أمان وحماية، وفي السرابيل وقاية للجسد من الحر والحرب معًا .. وهى كلها مفردات تشي بالأمان النفسي والراحة القلبية ..

ومن ثم كان من طبيعة بناء الوحدة الكلية أن تتلاءم الأنعام مع هذا المشهد التصويري، فأخذ السياق منها ما يفيد ذلك .. فمن جلود الأنعام وصوفها ووبرها وشعرها تصنع الخيام، والقباب والبيوت .. تضفي الحماية والطمأنينة وهى أيضًا سهلة الحمل في التنقل والإقامة .. كما أن الناس يلبسون من الصوف والوبر

---

[1] سورة النحل الآيات ٨١ – ٨٢.

[2] الظلال جـ٤ ص ٢١٨٧

والشعر الملابس والسرابيل كما يتخذون منها الأمتعة يفرشون بها مساكنهم، وكذلك الأثاث الذي يريحهم ويمتعهم.

وكل هذه المفردات مما يلاذ به أو يحتمي، أو يستظل، أو يستتر، فالمنظر كله أبنية وأردية وظلال.

- ووردت كلمة "الإبل" في سورة الغاشية في إطار عام عن الوحدانية والقدرة ودعت الآية إلى النظر إلى الإبل نظر اعتبار، إذ خلقت خلقًا عجبًا دالًّا على تقدير الله وتدبيره، إذ جعلها تفي بحاجة الإنسان في كل حالة، (وعن سعيد بن جبير قال: لقيت شريحا القاضي فقلت: أين تريد ؟ قال: أريدُ الكناسة، قلت: وما تصنع بها ؟ قال: أنظر إلى الإبل كيف خلقت ؟.

ولقد تناولت الآية الأدلة على وحدانية الله وقدرته، متمثلة في خلق الإبل وخلق السماء، والجبال، والأرض .. وكلها شواهد ملموسة على جلال سلطانه وعظيم قدرته، وجميل تدبيره.

قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[1].

لقد طالبت الآيات البشر أن ينظروا إلى بديع خلقه، إلى الإبل وكيف خلقها الله على هذه الصورة البديعة ؟ وذلك لإدراك عظمة الخالق والنعمة التي أنعم بها على خلقه، وإلى السماء وكيف رفع الله بناءها بلا عمد، وإلى الجبال الشاهقة وكيف نصبت راسخة لا تتزلزل، وإلى الأرض وكيف بسطها الله ومهدها..

---

[1] سورة الغاشية آيات ١٧ – ٢٠.

قال ابن كثير (نبه تعالى البدوي على الاستدلال بما يشاهده من بعيره الذي هو راكب عليه، والسماء التي فوق رأسه، والجبل الذي تجاهه، والأرض التي تحته .. على قدرة خالق ذلك وصانعه وأنه الرب العظيم)[1]، إن الحكمة في تخصيص هذه الأشياء بالذكر أنها مما تقع عليه عين المشاهدة.

.. ترى ما الوحدة التي تجمع بين جزئيات الخلق هذه ؟، ما الإطار المشهدي التصويري الذي يحتضن في داخله مفردات عناصر هذا البناء البديع ؟

فهذه الجزئيات وإن كانت تجمع أطراف بيئة البدوي إلا أنها تضم أطراف الخلائق البارزة في الكون، والإبل هنا – وهى نوع من الأنعام – تتضمن صفة خاصة بخلقها وتكوينها وقيمة عامة في حياة البدوي، فالإبل حيوان العربي الأول عليها يسافر ويحمل أثقالًا ومنها يأكل ويشرب ويرتوي غذاءً كامل الفائدة، ومن أوبارها وجلودها يلبس ويرتدي سرابيل تقيه الحر والبرد ويبتني البيوت السهلة الانقياد، ترعى في يسر، وتصبر على الجوع والعطش طويلًا .. ومن ثم وجب توجيه النظر إلى تدبر خلق الإبل على هذا النحو المناسب لوظيفتها المتناسقة مع بيئتها ..

.. كما أنها تتنامى مع وحدة المشهد التصويري ككل، ذلك المشهد الذي يلاحظ فيه هذا التكوين البديع الموحي بالضخامة، والذي يلقي في حس الإنسان ووجدانه السعوري الدهشة والتعجب وتعميق النظرة المتأملة والوحدة المشهدية المصورة توحي بالتوافق الموجود بين عناصرها، وكذلك العلاقة التي تؤكد على أنها لم تأت عبر صدفة ما، بل حسب تدبير عظيم وسلطان جليل .. إنها توحي بعظمة الله وقدرته، ومن ثم برز الانسجام واضحًا في عناصر الوحدة حين جمعت

[1] صفوة التفسير جـ٢ ص٥٥

بين هذه الأشكال المرئية، وتوفر الوحدة هنا يتيح للمتأمل أن يرى هذا المشهد رؤية كلية ثم تتدرج الرؤية نحو الجزء.

فثمة توازي في الاتجاهات .. فها هى السماء المرفوعة بما تشي به من امتداد لا نهائي، وبما تتزين به من أجرام هائلة .. وتلك الأرض المديدة الواسعة، العريضة، المبسوطة .. وهذه الجبال المركوزة على سطح الأرض وأعماقها، تلك الإبل الضخمة البارزة السنام، العالية الرأس، الطويلة الأعناق .. فالمشهد ككل يتحد في الشكل كما يتناسق في الحجم.

(والملحوظ هنا هو الضخامة وما تلقيه في الحس من استهوال، والأجزاء موزعة بين الإتجاه الأفقي في السماء المرفوعة، والأرض المبسوطة، والإتجاه الرأسي بينهما في الجبال المنصوبة والإبل الصاعدة السنام، وهذه دقة أوجدتها يد المصور المبدع في الأشكال والأحجام)[1].

لقد برز في إطار هذه الوحدة المتكاملة الحيوان المناسب في التكوين والسياق العام .. إنه الجمل أليف الصحراء الفسيحة التي تحدها السماء والجبال في مشهد جليل.

- كما وردت "الأنعام" في مجال النعمة أيضًا وفي جانب محدد، وهو الاستواء .. وذلك في مقارنة بينها وبين الفلك في البحار، فكما سخر الله للبشر السفن في البحر، سخر لهم أيضًا الإبل في البر وسيلة للسفر والتنقل قال تعالى: (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا

---

[1] التصوير الفني في القرآن ص ١٢٣.

تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ)[1].

(وليس المراد من ذكر النعمة تصورها وإخطارها في البال، بل المراد تذكر أنها نعمة حاصلة بتدبير القادر العليم الحكيم، مستدعية لطاعته وشكره، فإن مَنْ تفكر أن ما يركبه الإنسان من الفلك والأنعام أكثر قوة وأكبر جثة من راكبه، ومع ذلك كان مسخرًا لراكبه يتمكن من تصريفه إلى أي جانب شاء، وتفكر أيضًا في خلق البحر والريح وفي كونهما مسخرين للإنسان مع ما فيهما من المهابة والأهوال، استغرق في معرفة عظمة الله تعالى وكبريائه وكمال قدرته وحكمته، فيحمله ذلك الاستغراق على أن يقول متعجبًا من عظمة الله (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين)[2].

ولقد برز الاستواء كوحدة تصويرية شملت السياق العام، فثمة استواء على ظهر السفينة، حيث الاستقرار والتمكن والطمأنينة وسكينة القلب والجسد معًا، وكذلك الاستواء والمتعة من جراء التنقل والتنوع والتغير، وهذه الوسائل ذللها الله وسخرها ويسرها للبشر، ومن ثم وردت هذه الصورة الكلية لتجمع بين استوائين في البحر المتلاطم، والصحراء المترامية وتأخذ من معناهما معًا، الراحة، والسكينة، وتذكر أيضًا بنعم الله .. فأضافت الصورة بذلك ملمحًا جديدًا للصورة الكلية للأنعام في مجال التذكير بالنعمة.

ولعلنا نستطيع أن ندرك جانبي الصورة في البحر والبر .. وملاءمة الزوجية هنا (الفلك – الأنعام) الثنائية الصورة، بحيث تختلف في الشكل والمجال وتتفق

---

[1] سورة الزخرف الآية ١٢ ، ١٣.

[2] صفوة التفسير جـ٣ ص ١٢٥.

في جوهر الهدف، وتفيض الدلالة عندما نتصور المجال في الجانب الأول بما يكتنفه من غموض وهول وتقلب وموج متلاطم، وخوف يصاحب كل حركة عنيفة، أو ريح عاصفة.

وتصبح السفينة أيضًا .. وفي الجانب الثاني تترامى الصحراء برمالها المتحركة والمتموجة والمتقلبة كالبحر تمامًا، فضلًا عن الرياح العاتية والحرارة العالية وتضاريس المكان بين العلو الشاهق كقمة الموجة وبين السفوح المستوية والأخاديد العميقة كانحسار الموجة وحركة الدوامات المائية .. هذه الصحراء يصاحبها الخوف والمخاطر والمهالك مما يجعل الإبل ملاذًا من نهاية مؤلمة.

ولعل هذا التصور الفرعي للدلالة كفيل بأن يجعل القلب البشري يفيض بمشاعر حساسة مرتبطة بالخضوع لله، لا تغفل رضاه ونعمته ولا تنسى رحمته.

- وترد كلمة "الأنعام" كمفردة تصويرية في إطار من الصورة الكلية التي تتناول شهوة التّملك .. وهى شهوات فطرية من ينساق إليها يسقط ويتدنى.

قال تعالى: (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ)[١].

والآية الكريمة توضح سقوط الناس حين يغترون بشهوات الحياة الدنيا، تلك الشهوات التي تحددت بمفردات منها: – النساء بما يحملن من فتنة ولذة، والبنين لكونهم قرة العين وطريقًا للتواصل والامتداد، والذهب والفضة (المال) لأنه وسيلة هامة لتحقيق الرغبة وإنفاذ الشهوة، والخيل لما تتضمنه من أصالة،

---

[١] سورة آل عمران الآية ١٤.

وحُسْن، وبهاء، ومتعة، والأنعام من إبل وبقر وغنم لكون الفائدة تتعدد من ركوب وطعام وزينة ثم الحرث الذي هو القوت والطعام.

والله سبحانه وتعالى (جعل الأعيان التي ذكرها شهوات، مبالغة في كونها مشتهاة، محروصًا على الاستمتاع بها، والوجه أن يقصد تخسيسها فيسميها شهوات، لأن الشهوة مسترذلة عند الحكماء، مذموم من اتبعها، شاهد على نفسه بالبهيمة)[1].

والاستغراق في شهوات الدنيا يشغل القلب عن التبصر والاعتبار ويدفع إلى الغرق في لجة اللذة الحسية، وهذه الرغبات فطرية تؤدي دورًا في حفظ الحياة وامتدادها، ولكن يجب ضبطها وتنظيمها، بحيث يصبح الإنسان مالكًا لها ومسيطرًا عليها.

ففي آية واحدة "يجمع السياق القرآني أحب شهوات الأرض إلى الإنسان وهى خلاصة للرغائب الأرضية إما بذاتها وإما بما تستطيع أن توفره لأصحابها من لذائذ أخرى"[2].

ولعل الصياغة تشير إلى هذه الفطرية في الذات البشرية، فبناء الفعل للمجهول يوحي بأن التركيب الفطري في الإنسان خلق وفيه هذا الميل إلى الشهوات.

والإسلام يراعي الفطرة، ويقبل واقعها ودوافعها ولكنه يحاول أن يهذب ويرفع ويتسامى بحيث لا تطغى اللذة الحسية على "أشواق الروح" وتطلعها إلى الله.

---

[1] الكشاف جـ ١ ص ١٧٨.

[2] الظلال جـ١ ص ٣٧٣.

وتنوع المفردات في المشهد يصنع وحدة في الصورة العامة، وتقوم كل مفردة بتلوين مساحة من المشهد، بحيث يتنوع الشكل ومن ثم يتضمن إحساسات مختلفة تتجاوز وتتمازج، وتتحاور فتعطي للمشهد كليته، ومعناه العميق، ويتفرع عن المفردة مفردة أخرى مرتبطة بها ومتلاصقة، فالنساء والبنين يكونان وحدة في المساحة، وكذلك الذهب والفضة، والأنعام والحرث، ثم الخيل والمعنى العميق المستخلص من المشهد يؤكد على أن كل هذه المفردات – النعم – زائلة وفانية ولا يبقى إلا الجزاء على شكر النعمة والعمل بحقها، ومن ثم جاءت الآية التالية لتبين ما هو أفضل من نعم الدنيا ومتاعها الفاني.

قال تعالى: ( .. لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ)[1].

• ثم نأتي إلى الدلالة الحقيقية المتضمنة في كلمة "الأنعام" من حيث كونها إشارة إلى الحيوانية ورمزًا عليها، تلك الحيوانية التي تحكمها الغرائز وتتدنى في مجال الخلق والتكوين، ومن ثم يتصاحب المعنى في مجال الحديث عن الكفرة الذين غرقوا في متاع الدنيا ونسوا عقولهم وغفلوا عن إنسانيتهم فجحدوا بنعم الله، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ)[2].

والآية الكريمة تشير إلى أن الله يعطي المؤمنين من عباده نصيبًا وافرًا من نعمه في الآخرة حيث تكون الجنة من نصيبهم، وهو نصيب يتناسق مع الإيمان

---

[1] سورة آل عمران الآية ١٥.

[2] سورة محمد الآية ١٢.

ومع الصلاح، فالتكامل في الفعل ونتيجته تكامل ازدهى وتألق برضى الله الذي تمثل في الجنات التي تجري من تحتها الأنهار.

أما الكفار فهم يأكلون كما تأكل الأنعام، ويكون جزاؤهم النار مثوى ومقامًا " .. إنهم ينتفعون بمتاع الدنيا أيامًا قلائل، بأكلون غافلين، غير مفكرين في العاقبة، كما تأكل الأنعام في مسارحها غافلة عما هى بصدده من النحر والذبح .. والنار منزل ومقام لهم في الآخرة"[1].

وطرف الموازنة قد ردت فيه كلمة الأنعام في إطار تصويري مغاير للأطر التصويرية التي وردت فيها الكلمة سابقًا، وأعطت الكلمة عبر السياق الدلال الحقيقية للأنعام، وهى الدلالة الحيوانية البحتة.

فالكافرون يتمتعون بمتاع الدنيا أكلًا وشربًا في شراهة خالية من التذوق والتعفف، إنهم يلتهمون المتعة، ويقارفون الشهوة في نهم حيواني خالٍ من الحس الإنساني والجمال السلوكي، ومفتقد للشعور الأخلاقي القائم على التقوى، والنظافة في الفعل.

والصورة التشبيهية أعطت للوحدة وإطارها العام ووشت بمعنى عميق يتناول الإنسان في جانبه الحيواني .. حيث (شبه الكفار بالأنعام في التمتع بالأكل، فهم يأكلون عن شره ونهم كسائر البهائم ازدراءً لهم، وتحقيرًا لحالهم، ووصفهم بالدناءة والبطنة مما تذمه العرب وتبغضه)[2].

---

[1] الكشاف جـ٣ ص ٤٥٥

[2] القرآن والصورة البيانية د. عبد القادر حسين ص ١٤٩.

إن الحيوانية التي يرمز إليها بكلمة الأنعام، تتحقق في المتع الدنيوية التي تسيطر عليها ضغوط الشهوة، ومثيرات اللذة ودواعيها ومن ثم تصبح الصورة تصويرًا مزريًا للإنسان حين ينحط إلى درجة الأنعام، ذلك أن الفارق الرئيسي بين الإنسان والحيوان "إن للإنسان إرادة وهدفًا وتصورًا خاصًا للحياة على أصولها الصحيحة المتلقاة من الله خالق الحياة، فإذا فقد هذا كله فقد أهم خصائص الإنسان المميزة لجنسه" .. ولقد أوضحت "الأنعام" الرمز الكلي للحيوانية من حيث الجنس والدلالة.

# الفصل الثالث

- الأداء التصويري.
- وايقاع الفواصل.

إن التناسق في النص القرآني الكريم، يبلغ الدرجة العليا في إحداث جماليات التصوير الفني، والإيقاع الموسيقي أحد ملامح هذا التناسق وهو ناتج عن ملاءمة اللفظ مع النسق الخاص الذي ورد فيه، كما أنه يتنوع بتنوع الفواصل، القصير منها والطويل، المتماثل منها والمتخلف.

والإيقاع في النص القرآن الكريم قد تحرر من كل قيد يقيد المعنى، أو يحد من النظام الصوتي، مما أدى إلى حرية التعبير وامتلاك آفاق رحبة من التآلف والتلازم والانسجام.

إنه إيقاع لغوي متفرد، لا يماثله إيقاع أو يقترب منه، إنه إيقاع جماعي – إن صح التعبير – يقوم فيه الحرف الصوتي بدوره، والكلمة في نسقها بدورها، والجملة في سياق التركيب بدورها، والآية من خلال السورة والموقف بدورها .. والفاصلة من خلال التردد الصوتي والتكرار الإيقاعي بدورها .. إنه إيقاع منبعث من النص في تكوينه الصوتي واللفظي، يبرزه كل مكونات النص القرآني.

فهذا الإيقاع "ينبعث من تآلف الحروف في الكلمات، وتناسق الكلمات في الجمل، ومرده إلى الحس الداخلي، والإدراك الموسيقي، الذي يفرق بين إيقاع موسيقي متناسق وإيقاع مضطرب[١]".

والفاصلة القرآنية ليست قيدًا صوتيًا، أو معنويًا .. كما نلمح ذلك في الشعر والنثر، فكثيرًا ما وجدنا التكلف في إيرادها ولو كان ذلك على حساب المعنى وجمال التركيب، ويبدو ذلك أكثر وضوحًا لدى الكتاب الذين يغرمون

---

[١] التصوير الفني في القرآن سيد قطب ص ١٠٤.

بالمحسنات اللفظية التي تصرفهم عن جمال المعنى وتبعدهم عن التناسق في التركيب ..

"والفاصلة القرآنية عنصر أساسي من عناصر اللغة الإيقاعية، والقرآن الكريم يمتاز بحسن الإيقاع، فتأتي الفاصلة في ختام الآيات حاملة تمام المعنى وتمام التوافق الصوتي في آن واحد"[١].

* والفاصلة في القرآن هى ما تنتهي به الآية القرآنية، وهى جزء من الآية، وعنصر تعبيري متميز، ومثير قوي للإيقاع، وهى –كملمح أساسي من ملامح الإيقاع الموسيقي، والنظم الصوتي في القرآن – تنضوي على دلالتين هامتين، الدلالة الأولى: وهى دلالة صوتية تتمثل في الإيقاع والرنين الصوتي، المحكوم بنسق الآية والسياق العام.

والدلالة الثانية: دلالة معنوية تحمل تمام الفكرة في الآية، وأننا لندرك تلك الدلالة من خلال الآية التالية والتي وردت فيها الفاصلة متلائمة تمامًا مع المعنى المراد .. إن المعنى الكامن في الفواصل بعد أساسي من أبعادها وغرض واضح من إيرادها المتكرر.

قال تعالى: (إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم).

السياق يوحي بالغفران، ولم تنته الآية بما يلائم الدلالة الظاهرة وذلك كأن تكون الفاصلة "الغفور الرحيم"، ولكنها جاءت كما وردت في الآية بيانًا أن من يستحق العذاب، فلا يغفر له إلا من كانت سلطته فوق السلطات وعزته فوق كل

---

[١] مكانة الفواصل من الاعجاز – الدارة ربيع الآخر ١٤١٠هـ.

عزة، ومن كان كذلك وجب أن يكون متصفًا بالحكمة، وليس كل عزيز عادلًا، فمن الحكام من عزوا وفقدوا الحكمة، ومن ثم جاء ربط الحكمة بالزة تعبيرًا مصورًا رائعًا، وبيانًا قاطعًا ذلك أنه (ما انتهت آية قرآنية إلا بفاصلة ملائمة كل الملاءمة لمعناها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في مكانها، غير نافرة ولا قلقة)[1].

إن ارتباط الفاصلة بالسياق أمر أساسي إذ يرتبط بالفكرة والهدف .. فهى لم تأت كحيلة لفظية لا ارتباط لها بالمعنى أو اعتبار له.

قال تعالى: (إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ)[2].

هذا لون من العذاب الذي يحيق بالكافرين يوم القيامة، فأيديهم تربط بالأغلال، والأغلال هى القيود التي تجمع في ربطها بين اليد والعنق، وتتدلى من هذه القيود السلاسل حيث يسحبون منها إلى ماءٍ حارٍ ثم يحرقون في النار.

قال ابن كثير "إن السلاسل متصلة بالأغلال وهى بأيدي الزبانية يسحبونهم على وجوههم تارة إلى الحميم وتارة إلى الجحيم"، ويقال لهم تبكيتًا أين الأصنام التي عبدتموها من دون الله، فيجيبون أنها غابت عن العيون، وأنهم ما عبدوا شيئًا، لقد وقع العذاب لضلالهم.

---

[1] التعبير الفني في القرآن بكري شيخ أمين ص ٢٠٢.

[2] سورة غافر الآية ٧١ – ٧٤.

والمشهد من مشاهد يوم القيامة في التهديد المخيف، كما أن التشبيه وارد في النص حيث يسحبون كما تسحب الأنعام.

والفاصلة "يسحبون" من حيث المعنى مرتبطة بالسلاسل ومتصلة بقوله "في الحميم" و "يسجرون" أفادت التوكيد بالعذاب في جهنم المحرقة، لأنه لو وقفت الآية عن قوله تعالى (ثم في النار .. ) لبقى المعنى محتاجًا إلى ثبات واستمرار وحبس وقرار .. فجاءت الفاصلة لتوضح هذا المعنى، كما أن فاصلة (تشركون) متصلة بقوله "من دون الله" لبيان الضلال عن الحق والابتعاد عن التوحيد، ومن ثم وجب الوقف على الفاصلة برغم الاتصال ..

ونلاحظ أيضًا الإيقاع الممتد والمستمر الملحوظ في حرف المد في استمراره وطوله ثم استقراره وتمكينه في حرف النون.

والفاصلة القرآنية لها مكانها عبر السياق الذي تستقر فيه بلا نفور أو قلق بل تتلاءم وترتبط به ارتباطًا قويًا بحيث لو طُرحت لاختل المعنى واضطرب الفهم قال تعالى: (وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا)[1].

تتناول الآية موقف الأحزاب وقد خرجوا لغزو المدينة، حيث ردهم الله على أعقابهم خاسرين ولم يشف صدورهم بما تمنوا تحقيقه بل اكتسبوا الإثم والعذاب والاندحار .. ولقد كفى الله المؤمنين شر أعدائهم بإرسال الريح حتى ولو الادبار منهزمين، وكان الله قادرًا على الانتقام من أعدائه عزيزًا غالبًا لا يقهر[2].

---

[1] سورة الأحزاب آية ٢٥.

[2] انظر صفوة التفاسير جـ٢.

وجاءت الفاصلة في قوله (قويًا عزيزًا) لتحدث هذا المعنى المطلوب خاصة وان حرف الروي اختلف (الزاي) واتفقت الفاصلة في التنوين .. على الحرف الأخير المتنوع .. وهذا التنوين لون من ألوان الإيقاع المؤثر في النفس، الحامل قدرًا كثيرًا من الرنين الصوتي.

ولو انتهت الآية – كما يرى الزركشي – عند قوله عز وجل (وكفى الله المؤمنين القتال) لتوهم بعض الضعفاء أن ذلك يعني موافقة الكفار في اعتقادهم أن الريح التي حدثت كانت سبب رجوعهم، ولم يبلغوا ما أرادوا، وأن ذلك أمر اتفاقي، فأخبر الله سبحانه وتعالى في فاصلة الآية عن نفسه بالقوة والعزة، ليعلم المؤمنين ويزيدهم يقينًا وإيمانًا على أنه الغالب الممتنع وأن حزبه كذلك – فقال عز وجل (وكان الله قويًا عزيزًا).

كما أن هذه الفاصلة بينت أن تلك الريح التي هبت ليست اتفاقًا بل هى من إرساله عز وجل على أعدائه كعادته، وأنه ينوع النصر للمؤمنين ليزيدهم إيمانًا بنصرهم[١].

لقد أثبت النص القرآني هذه الحقيقة وتثبيتها في القلوب.

والمتذوق للغة، وصاحب الحس المرهب يدرك مكانة الفاصلة وموقعها وما تتركب من حيث دلالة المعنى ودلالة الإيقاع معًا.

روى أن أعرابيًا سمع قارئًا يقرأ قوله تعالى (فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله غفور رحيم). فقال الأعرابي بحسه اللغوي الصافي: إن الحكيم لا يذكر الغفران بعد الزلل لأنه إغراء عليه، وكأنه يريد أن يوحي ويؤكد

---

[١] مجلة الدارة وانظر البرهان في علوم القرآن للزركشي.

على أن العبارة لا تتناسق مع المعنى المراد من الآية، وهذا يعني أن الفاصلة في هذا الموضع "رحيم" لا تتلاءم مع المعنى أو مع السياق، لأن تتابع السياق تحددها الألفاظ – "زلل – بينات – اعملوا" .. وهذا التتابع يضع سلسلة من الأفعال والبيانات الداعية إلى أن الحق يعني الالتزام بأمور الدين، والخروج عن التعاليم الإلهية خروج عن الأمر الإلهي بالاعلام والتبيين .. ومن ثم فإن الحكم الطبيعي للخارج عن النظام ليس الغفران وإنما الشدة وفرض العقاب ..

ونعود إلى قصة الأعرابي الذي لفت نظر الفارئ إلى أن المعنى لا يستقيم .. لنعلم أن القارئ راجع قراءته فعلم خطأه وصحح الآية الكريمة .. حيث أكملها بقوله .. (فاعلموا أن الله عزيز حكيم).

ومعنى ذلك أن الفاصلة تلتحم بالآية التحامًا تامًا، فتذكر بأن الله عزيز لديه القوة والقدرة وأن القوة ستطولهم وتنال منهم إن خالفوا التوجيه، وتوضح أنه حكيم فتوحي بأن ما اختاره الله للبشر هو الخير وأنهم خاسرون إن لم يتبعوا طريق الخير .. كما أن الفاصلة تؤكد معنى التهديد والتحذير ..

وفي هذا الصدد يرى "الرماني"[(١)] أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها، "وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة، لأنها طريق لإفهام المعاني التي يُحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها".

والبلاغة من حيث هي من القول لا تفصل بين جوهر المعنى وبين أسلوب أدائه من حيث التآلف والرهافة والإيقاع "وهذا هو الحد الفاصل بين فنية البلاغة كما تجلوها الفواصل القرآنية بدلالاتها المعنوية المرهفة ونسقها الفريد في

---

[(١)] علي بن عيسى الرماني مؤلف كتاب: النكت في إعجاز القرآن.

إيقاعها الباهر، وبين ما تقدمه الصفة البديعية من زخرف لفظي يكره الكلمات على أن تجيء في غير مواضعها البيانية"[1].

.. والإيقاع والتلاءم مع الموضوع ملمح جمالي في أداء الفاصلة لوظيفتها، إن نظم القرآن ونغمه ينبعث من الحروف والكلمات والأسلوب، فحروفه متآخية في كلمات ذات إيقاع موسيقي ونغم تهتز المشاعر منها اهتزازًا وتسكن النفوس مطمئنة راضية، ويختلع الوجدان متأثرًا ومنفعلًا ويطرب القلب حين يدرك المعنى مصحوبًا بإيقاع مؤثر يرهف الحس ويرقق الوجدان.

والتلاؤم ملمح جمالي في القرآن .. يرتبط بالإيقاع ارتباطًا وثيقًا ومن ثم يتحدد الأداء التعبيري بدورهما عبر السياق القرآني .. فالإيقاع الهادئ له موضعه الملائم له، والإيقاع الهادر الصاخب له موضعه الملائم له، والإيقاع الساكن الرقيق له موضعه أيضًا .. ويتبدى التلاؤم في أن "الآية تتضافر ألفاظها في نغم هادئ إن كانت الآية في تبشير، أو داعية إلى التأمل والتفكير إن كانت في عظة، وتتلاءم نغماتها قوية إذا كانت في إنذار أو وصف عذاب"[2].

.. في آيات الضحى نلمح هذا الهدوء وتلك السكينة، البادية في نغمات الرحمة الواسعة، والمنبعثة من التلاؤم والتآلف وإيقاع الفواصل:

قال تعالى: (والضحى * والليل إذا سجى * ما ودّعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى)[3].

---

(1) الاعجاز البياني للقرآن د. بنت الشاطئ ص ٢٥٨.

(2) القرآن المعجزة الكبرى محمد أبو زهرة ص ٢٨٧.

(٣) سورة الضحى الآيات ١– ٥.

وسورة الضحى خاصة بالنبي ﷺ وفيها تسلية وإيناس وتطمين، وتنبثق منها نسائم الرحمة، ويشع من الإيقاع الهادئ الناعم لمسات الحنان والرحمة الإلهية، وجاء القسم بالضحى الرائق الصافي كما جاء بالليل في رقته وسكونه وصفوة بما يشعر بالتواصل بين الكون والذات فتنتفي الوحشة ويتأكد الأنس والمؤانسة، وتؤكد الآيات على رعاية الله لمحمد ﷺ وادخاره الخير له وغلبته على أعدائه.

إن الفواصل في الآيات فيها تمهل واستقرار، ويغلب عليها التساوي في الوزن والتوازن في الإيقاع، والملاحظ على الفواصل أن كاف الخطاب قد حذفت إذ من مراعاة السياق تواصل الخطاب، فقوله تعالى (ما ودعك) خطاب موجه إلى الرسول، ولم نلحظ الكاف في (ما قلاك) مثلًا .. وكذلك في آوى وهدى وأغنى .. في السورة ككل.

وجاء حذف الكاف لدلالتين متمازجتين كل التمازج .. وكان الحذف متلائمًا مع المعنى المراد، فالدلالة الأولى: دلالة صوتية تحفل بالرنين الهادئ الآخذ بالنفس، وهذا ناتج عن رعاية الفواصل في إيقاعها المتواصل، بحيث يتوالى حرف المد بفيضه الشعوري وتعاليه النفسي.

والدلالة الثانية: (دلالة معنوية نفسية تتنامى مع السياق الذي "تقتضيه حساسية مرهفة بالغة الدقة واللطف، هى تحاشى خطابه تعالى رسوله المصطفى في موقف الإيناس بصريح القول: وما قلاك، لما في القلى من حس الطرد والإبعاد وشدة البغض، أما التوديع فلاشيء فيه من ذلك، بل لعل الحس اللغوي فيه يؤذن بأنه لا يكون وداع إلا بين الأحباب)[1].

---

[1] الاعجاز البياني للقرآن ص ٢٥٠.

... وكذلك الهدوء الباعث على التأمل في الكون، وهو نوع فكري تأملي، ينبثق منه إيقاع هاديء ونغم له رنينه الساكن، وذلك من أجل لفت الذهن، وإثارة مدارك الفكر، وتوجيه العقل نحو مشاهد الكون لإدراك العظمة الإلهية وراءه، وتأكيد الوحدانية واحتواء الوجدان بفيض من المشاعر الروحية.

قال تعالى: (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت* وإلى السماء كيف رفعت* وإلى الجبال كيف نصبت* وإلى الأرض كيف سطحت)[1].

تدعو الآيات الكريمة البشر إلى أن ينظروا إلى بديع خلقه، وتأخذ الآيات بعقل الانسان ليتأمل هذه النعم الباهرة التي حددتها الآيات، وهى السماء والأرض والجبال والجمال، ومع ما في الموجودات من صفة مادية مشتركة وهى البروز والضخامة، كما أنها أشياء داخلة في مجال إدراكه البصري والعقلي، والتوجيه يدعو إلى تأمل الإبل كيف خلقها الله على هذا النحو الذي يلائم الوظيفة والمكان من حيث التناسب والحركة والتناسق العام .. كما يدعو التوجيه إلى التفكير في السماء بما فيها من منافع وجمال، تتصل بالنهار الواضح، والليل الساجي والنجوم المتلألئة، فضلًا عن تنظيم حركة الحياة وفقًا لحركة السماء، ويدعو التوجيه إلى إنعام النظر والفكر في الجبال الشامخات فهى الملاذ، وهى الصاحب، وهى المشهد الموحي بالجلال والعظمة، وكذلك الدعوة إلى تأمل الأرض وقد مهدها الله للحياة والعمل ..

ولاشك أن إيقاع الناتج عن الفواصل المتحدة في الحرف الأخير وهو التاء في ألفاظ (خلقت، رفعت، نصبت، سطحت) ساعد في إجاشة القلب وتحريك الوجدان، وساهم في تكوين الحركة الجمالية المشتركة أمام جمال

---

[1] سورة الغاشية الآيات ١٧ – ٢٠.

التناسق التصويري لمفردات الكون، كما أن حركة الفاصلة حركة بناء للمجهول، تستدعي كوامن العقل لسبر أغوارها والوقوف على فاعلها، وفك مجهوليتها، ليصل تلقائيًا إلى أن وراء ذلك كله إله واحد لا شريك له، ولقد ساعد الإيقاع الداخلي الناتج عن تكرار اسم الاستفهام "كيف" الباعث على التساؤل عن الكيفية والحالية، وهو استفهام إعجازي لأن العقل البشري لن يستطيع أن يعلم كيفية الخلق ولكنه يدرك أن الله هو الخالق المتفرد بالوحدانية.

والفصل متساوية في الوزن تقريبًا، والآيات ذات إيقاع موسيقي متحد تبعًا لذلك .. والإيقاع هاديء متزن ساكن يتلاءم مع الدعوة إلى التأمل والتدبر.

... ويتناسق الإيقاع متلائمًا مع الموضوع من حيث القوة والجرس الصوتي المدوي "المنبثق من الألفاظ بحروفها، والجمل بتراكيبها، والخواتم بشدة جرسها وقرع الأسماع بها"[1].

ويصبح الإيقاع هادرًا، صاخبًا، قويًا، له رنينه الحاد، وتساعد الفاصلة على نقل ذلك كله إلى الوجدان.

قال تعالى: ﴿القارعة* ما القارعة* وما أدراك ما القارعة* يوم يكون الناس كالفراش المبثوث* وتكون الجبال كالعهن المنفوش﴾[2].

إن المشهد هنا يتسم بالهول العنيف تحدده الكلمة الأولى "القارعة" التي تبدو من خلال السياق كقذيفة تلقي بجرسها الصوتي الرهبة والخوف في النفوس، وتستمر الفاصلة في إحداث هذا الرنين الصاخب الموحش عن طريق التكرار

[1] القرآن المعجزة الكبرى ص ٢٨٨.

[2] سورة القارعة الآيات ١ – ٥

والتوازن، في هذا الجو تتغاير المرئيات وتتبدل فيصبح الناس من الخفة والرعب معًا كالفراشات، وتتحول الجبال إلى رمال مسحوقة كالصوف المنفوش ولعل حرف الشين بهسيسه الصوتي يوحي بهذا الانسحاق والتفتت هذا التلاؤم بين الإيقاع والموضوع فيه تعبير يتراوح بين القصر والطول .. وكذلك تدرج المدّ الصوتي ..

"فمن تناسق العرض أن تسمى القيامة بالقارعة، ليتسق الظل الذي يلقيه اللفظ والجرس الذي تشترك فيه حروفه كلها، مع منظر الناس كالفراش المبثوث والجبال كالعهن المنفوش"[1].

وطول المشهد أدى إلى إطالة التعبير ومن ثم فهو أشد إثارة للحس وترويعًا للنفس، ونلمح هذا الهول والعنف والترويع في الآيات والسور التي تناولت يوم القيامة وكانت الفاصلة أهم أدوات التعبير الإيقاعية لإيصال هذا المعنى.

قال تعالى في سورة عبس: ﴿فإذا جاءت الصاخة* يوم يفر المرء من أخيه* وأمه وأبيه* لكل امرئ منهم يومئذ شان يغنيه*﴾[2].

إنه هول يوم القيامة الذي يفر الإنسان فيه من أحبابه لشدة الهول والفزع، فالصاخة لفظ ذو رنين صوتي مدّو، يخرق المسامع، كمقذوف يخترق الأذن، فيحدث هولًا نفسيًا يفزع النفس ويستبد بها، فتنشغل به عما عداه .. ومن ثم جاءت الفاصلة تحوي حرف المد مختومًا بالهاء التي هى في الأساس ضمير يلتصق بالذات .. ويلتحم معه في ودّ حميم، ويصبح الموقف آية في العجب والروعة، حين تتنصل الذات .. من هذا الضمير الحميم.

---

[1] مشاهد القيامة ص ٧٦.

[2] سورة عبس الآيات ٣٣ – ٣٧.

وفي سورة "الحاقة" نحس الرهبة التي تهز الحس هزًّا عميقًا، حيث تتوالى المشاهد في إيقاع ملح على الحس يتنوع بين الهول والجلال ويبدو ذلك جليًا في تكرار "الحاقة" بلفظها وجرسها ودلاتها قال تعالى: (الحاقة* ما الحاقة* وما أدراك ما الحاقة)[1].

وإيقاع اللفظ بذاته أشبه برفع الثقل ثم استقراره في قرار مكين، فالرفع في مدّة الحاء بالألف والجدّ في تشديد القاف بعدها واستقراره في قافية الفاصلة المكررة وذلك بالإنتهاء بالتاء المربوطة التي تنطق هاءً للسَّكْت، ثم نلاحظ التنوع في أداء المفردة التي هى فاصلة، حيث جاءت مقذوفة سريعة تدهش وتصيب بالهول وتستدعي الدهشة والخوف، ثم يتتابع الأداء بإضافات أسلوبية تدور حول الإستفهام للتعظيم مرة وللتجهيل وبعد المعرفة مرة أخرى، ونلاحظ هذا الإيقاع في متواليات مشاهد السورة، كما نرى في المشهد الذي يتناول مصارع الضالين المكذبين.

قال تعالى: (كذبت ثمود وعاءٌ بالقارعة* فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية* وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية* سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية)[2].

فالفاصلة التي تحمل الجرس المدوي في الياء والهاء الساكنة بعدها سواء كانت تاء مربوطة، أو هاء سكت لتنسيق الإيقاع في مشاهد التدمير والهول والجزاء، فألفاظ الفاصلة تحمل دلالات المعنى حملًا واضحًا، "فالقارعة" تشي بالصوت المدوي الذي يصك المسامع ويقرع الكون بالدمار، تعبير مروع لبيان

---

(1) سورة الحاقة الآيات ١– ٣.

(2) سورة الحاقة الآيات ٤ – ٧.

هول القيامة أحداثه جرس اللفظ بما يوحي به حروفه مثل القاف والراء والعين .. ويديمه ويقويه حرف المد حيث يصيب الكون كله، ولفظة "الطاغية" تفيض بالهول الذي حاق بالأمم السابقة، وإيقاع اللفظ يتفق مع إيقاع الفاصلة، وهذا الإيقاع الذي هو تنوع لصورة الهول مع القيامة .. وكلمة "عاتية" وردت صفة للريح الصرصر بما تحمله من عذاب ودمار، والتعبير يصور العاصفة المدمرة، ثم لفظة "خاوية" التي تلخص نتائج الهول والعذاب وقد وردت في أداء تشبيهي يؤكد على الموت والتآكل والهمود بعد العاصفة المزمجرة، ويأتي الإيقاع متفقًا مع الفاصلة لينهي به حركة هول مفزعة ويصل بها إلى نتيجتها المحتومة، والمشاهد كلها حية يصاحبها هذا الإيقاع الذي حركته الفواصل وساعدت عليه في إحداث الجرس الخاص في تنوعه وتلونه وفق نسق المشهد وإيقاعه.

تتغير الفاصلة ليتغير الإيقاع إلى إحداث رنة رهيبة لحظة إصدار الحكم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿خذوه فغلوه* ثم الجحيم صلُّوه* ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعًا فاسلكوه﴾[1].

ولعلنا نلاحظ إيقاع الفواصل المستمر "غلوه، صلوه، اسلكوه" .. هذا المدّ الطويل الذي يعكس زمن العذاب وطوله وما يترتب عليه من إحداث الرهبة والتخويف.

ونرجع إلى مشهد الذين نجوا من النار ودخلوا إلى الجنة وإيقاع الفواصل فيها ومدى ملاءمتها للمشهد والدلالة.

قال تعالى: ﴿فأما من أُتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقراءوا كتابيه* إني ظننت أني ملاق حسابيه* فهو في عيشة راضية* في جنة عالية* قطوفها دانية﴾[2].

---

[1] سورة الحاقة الآيات ٣٠ – ٣٢.

[2] سورة الحاقة الآيات ١٩ – ٢٣.

إن الفرحة تترقرق من المشهد، تملأ الجوانح وتفيض على القلوب والألسنة، ولننظر إلى هاء السكت في الفواصل التي أحدثت الإيقاع المنغم الذي يساعد على إبراز نبرة الفرح ورنته "كتابيه، حسابيه" فالفاصلة هنا هى الياء المصحوبة بهاء السكت لتنسيق الإيقاع وإبراز صورة المشهد في هيئة حركية مؤثرة، ثم تتحاور الفاصلة مرة أخرى مع الياء المصحوبة بالتاء الساكنة التي فيها تشديد وإقرار وتمكين، ولقد كانت الفاصلة الأولى واشية بهزة الفرح والمرح والمسرة، والفاصلة الثانية لتأكيد النعيم وصوره،ولعلنا نلاحظ أن الإيقاع عكس الفرحة التي غمرت قلب المؤمن حين علم أن الله راحمه بعد ما ظن أنه لا يخلف وعده.

كما نلاحظ أثر الفاصلة في كشف حالة الذين عذبوا بالنار قال تعالى: (وأما منْ أوتى كتابة بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه* ولم أدر ما حسابيه* يا ليتها كانت القاضيه* ما أغنى عني ماليه)[١].

أبرزت الفاصلة – الياء المصحوبة بهاء السكت – قربها من نفس المعذبين ومن كشفها لما حل بهم من حسرة وألم وعذاب ويأس، ومن ثم طال المشهد وتنوعت إيقاعاته .. وتكررت الألفاظ الواشية بهذا الندم (يا ليتني) كتأكيد استحالة حصول المتمني الذي يأخذ النفوس في تلك اللحظة، والتنغيم في الإيقاع يشمل الموقف كله.

(والرنة الحزينة الحسيرة المديدة في طرف الفاصلة الساكنة وفي ياء العلة قبلها بعد المد بالألف في تحزن وتحسر .. هى جزء من ظلال الموقف الموحية بالحسرة والأسى إيحاءًا عميقًا .. بليغًا"[٢].

---

[١] سورة الحاقة الآيات ٢٥ – ٢٨.

[٢] الظلال جـ٦ ص ٣٦٨٢.

مع ما يفيده جرس الكلمات وإيقاع العبارات في إطالة الموقف للعبرة .. وإنه لمن الجمال الفني ومن التأثير الوجداني ومن الغرض الديني، ما يجعل لطول الموقف غايته المقصودة.

وتغيرت الفاصلة عند تقرير أسباب العذاب الشديد الذي حاق بالكافرين يوم القيامة، قال تعالى: ﴿إنه كان لا يؤمن بالله العظيم* ولا يحض على طعام المسكين* فليس له اليوم ها هنا حميم* ولا طعام إلا من غسلين* لا يأكله إلا الخاطئون﴾[1].

والآيات تحمل سبب هذا العذاب وتصدر حكمها، فالكافر خلا قلبه من الإيمان، كما خلا من الرحمة بالمساكين فاستحق العذاب، وكان طعامه قيحًا وصديدًا هما ما ينز من أجساد أهل جهنم.

ولقد عكست الفاصلة هذا العذاب سواء عذابًا حسيًا أو معنويًا ليتم له في النهاية جحيم الجسم والروح معًا، وفي هذه المشاهد يبلغ التأثير الوجداني غايته حيث تتفتح منافذ النفس للإيمان ..

لقد تغيرت القافية ما بين الميم والنون فأحدثت رنة رزينة حاسمة تتلاءم مع المعنى الديني في السياق.

"إن فواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة، لأنها طريق إلى إظهار المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بها عليها"[٢٤].

---

[١] سورة الحاقة الآيات ٢٣ – ٣٧.

[٢] – اعجاز القرآن – الباقلاني، تحقيق السيد صقر ص ٢٧١.

** إن الفواصل إحدى أهم الأدوات العبيرية المحدثة للنغم والداعية إلى التوافق والتلاؤم والإيقاع، كما أن التلاؤم ناتج عن النغم وجرس القول وموسيقاه، فالحرف متلائم مع الحرف، واللفظ مع اللفظ، والجملة مع الجملة والآية مع الآية.

... والإيقاع النغمي يجمع بين الرنين والجرس الصوتي للفظ وذلك حين تكون الفاصلة متحدة الحروف متماثلة الوزن، متفقه في الحرف الأخير ومن ذلك قوله تعالى: (والطور* وكتاب مسطور* في رق منشور* والبيت المعمور* والسقف المرفوع والبحر المسجور إن عذاب ربك لواقع* ماله من دافع)[١].

إن الإيقاعات الموسيقية للمقاطع والفواصل على السواء تحدث تنغيمًا يحتد ويمتد ليشمل السورة ككل، ويصاحب الإيقاعُ القسم بمخلوقات عظيمة، لإحداث التهيئة الحسية لتلقى الأمر وهو حتمية العذاب، وإيقاع فاصلتي واقع – دافع، يوحي بالجسم والقطع، ويلقي في الحس بمداهمة الهول حيث لا عاصم ولا حامٍ ومن ثم يُخترق الوجدان فيضعف الإنسان ويخور خوفًا من العذاب الشديد، "وفي إضافة العذاب للرب لطيفة إذ هو المالك والناظر في مصلحة العبد فإضافته إلى الرب وإضافته إلى كاف الخطاب أما له ﷺ .. وأن العذاب واقع بمن كذبه، ولفظ واقع أشد من كائن كأنه مهيأ في مكان مرتفع فيقع على مَنْ حلّ به" ويروى عن جبير بن مطعم أنه قال: قدمت المدينة لأسأل رسول الله ﷺ في أساري بدر، فوافيته يقرأ في صلاة المغرب (والطور وكتاب مسطور ... أن عذاب ربك لواقع ... فكأنما صدع قلبي فأسلمت خوفًا من نزول العذاب)[٢] وحروف

---

[١] سورة الطور الآيات ١ – ٨

[٢] انظر صفوة التفسير ج٣.

الفواصل تتحد في – أكثر من مقطع ثم تتغير إلى اتجاه المقاطع في حرف آخر غير السابق مثلما رأينا في الوزن وحركة الصوت من فتح ووقف، وسكون وإمالة ومدّ .. مسطور، منشور، وكذلك واقع، دافع ..

ولقد جعل ذلك كله النص يبوح بقدر كبير من الموسيقى المؤثرة في النفوس حتى لتصبح خلجات النفس متناسقة مع حركات الإيقاع تهتز اهتزازها، وتميل مع إمالتها.

** وإذا كان التماثل في الفواصل ظاهرة عامة في النص القرآني فإن ثمة آيات تتقارب فيها مقاطع الفواصل تقاربًا يحدث الإيقاع والرنين الصوتي وذلك دون أن تتحد الفواصل في حرف واحد .. وإن لم تخل من الوزن الجامع للفواصل ..

قال تعالى: (ق والقرآن المجيد* بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب* أإذا متْنا وكنا ترابًا ذلك رجع بعيد قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتابٌ حفيظ* بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريج)[١].

الآيات الكريمة من أول سورة ق .. وهى سورة غنية بإيقاعها وبنائها التعبيري الذي يأخذ بجوانب النفس ودخائلها، وللفواصل فيها جرس صوتي أخاذ يتلاحق موجة إثر موجة، ونغمة إثر نغمة، متراوحًا بين حروف الدال، والباء – وهما الأكثر ورودًا – والجيم ثم الراء.

---

[١] سورة ق الآيات ١ – ٥

وفي الآيات قسم بالحرف قاف وبالقرآن المجيد، المؤلف من هذه الحروف .. ولعلنا نلاحظ تكرار الإيقاع الداخلي الناتج عن تكرار حرف القاف، وتذكر الآيات عجب الكافرين واستنكارهم للبعث ومع أن قضية البعث قاعدة أساسية في العقيدة مشاهدة رأوا لها مثالًا من الجدب والنماء إلا أنهم نظروا إليها في سذاجة وحمل الاستفهام الإستنكاري هذا المعنى . إذ كيف يكون بعث بعد الموت والبلي ؟.

إن أجسادهم تتآكل "والله يعلم ما تآكله الأرض من أجسادهم وهو مسجل في كتاب محفوظ فهم لا يذهبون ضياعًا إذا ماتوا وكانوا ترابًا"[1] .. إنهم قوم مادت بهم الأرض ولم يستقروا على شيء، ذلك أن كل ما عدا الحق الثابت مضطرب مائج مزعزع، ومن ثم تزل القدم ويفقد الإنسان الطمأنينة والقرار.

.. وفي الآيات ليس ثمة اتحاد في الفواصل، بل تتنوع وتتغير، ومع هذا التغير تحتفظ الفاصلة بإيقاعها النغمي، إنه الإيقاع الناتج عن تقارب مخارج الحروف – الدال، الباء، الظاء .. مع وجود حرف المدّ قبل الحلأ الأخير وهو حرف الياء مجيد، بعيد، حفيظ، مريج، .. ومن ثم يصبح نسق القول واحدًا، والإيقاع متوازنًا، بالرغم من أن الفاصلة لم تتفق اتفاقًا تامًا في الحروف .. ويجمع ذلك كله "اتحاد النغم والموسيقى في كل المقاطع فهى كلها مؤتلفة في حروفها وألفاظها وجملها ومقاطعها"[2].

---

[1] الظلال ج ٦ ص ٣٣٥٨.

[2] القرآن المعجزة الكبرى ص ٢٩٤.

وقد تخلو الآيات من فواصل متحدة ومع ذلك يبقى الإيقاع الموسيقي مصاحبًا للآيات وذلك ناتج عن التلاؤم بين الحروف وبين الجمل من خلال السياق الداخلي للنص.

** وإننا نلاحظ هذا الحرص الشديد في النص القرآني على إيقاع الفواصل مما يعني أهمية الفاصلة للنص وللقارئ معًا، فهي تحدث التأثير الوجداني المطلوب، بحيث يصل المعنى إلى المتلقي في أداءٍ منغم مؤثر .. ومن ثم نلاحظ على بعض الفواصل حذف بعض الحروف للإبقاء على حالة الإيقاع التي يحدثها تشابه الحروف وتماثلها فضلًا عن الدلالة المعنوية.

قال تعالى: ﴿والفجر* وليال عشر* والشفع والوتر* والليل إذا يسر﴾[١] ..

والآيات الكريمة قسم بضوء النهار وبالليالي العشر من ذي الحجة وبالزوج والفرد .. وكأن الله أقسم بكل شيء لأن الأشياء إما أن تكون زوجية أو فردية كما أقسم بالليل .. والجواب محذوف يفهم من خلال السياق، وهو العذاب الواقع على الكفار.

ويسري عبر هذه الآيات هذا الجمال التعبيري الرائق الذي يجمع الكائنات والخلائق في نسق جميل يتمثل في تنفس الصباح لحظة الميلاد بما يوحي من حركة ومَدّ وفرح، وحركة الأشياء المرتبطة بالخالق توحي بأن المراد بالشفع والوتر ما يتصل بالصلاة .. وهذا رأي قاله سيد قطب رحمه الله انطلاقًا من تحليله للنص وإدراكه لمعنى الحركة الكلية المنبثقة من المشاهد: يقول "والشفع والوتر يطلقان روح الصلاة والعبادة في ذلك الجو المأنوس الحبيب .. جوّ الفجر

---

[١] سورة الفجر الآيات ١ – ٤.

والليالي العشر .. وهذا المعنى هو أنسب المعاني في هذا الجو حيث تلقي روح العبادة الخاشعة بروح الوجود الساجية"[1].. كما أن الليل مخلوق حيّ يتحرك حركته .. وتنبثق من الآيات النغم الجميل عبر هذا التناسق الفذّ في إيقاع الفواصل: الفجر، عشر، وتر، يَسْر.

ولعلنا نُلاحظ حرص الآيات على استمرارية الإيقاع ومن ثم لاحظنا حذف الياء في "يَسْر" طلبًا للموافقة في الفواصل، وذلك لبيان أهمية الفاصلة في النص ولدى المتلقي معًا، من حيث الإبقاء على مناطق الإيقاع والتأثر النفسي .. ونلاحظ هذا الحرص على تواصل الإيقاع واستمراريته كسمة لإيقاع الفواصل .. في قوله تعالى: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴿٩﴾ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى )[2].

---

[1] الظلال جـ٦ ص ٣٩٠٣.

[2] سورة النجم الآيات ١ – ٢٢.

أقسم سبحانه بالنجم الساقط الراصد الدعوة المحمدية الداعية إلى الهداية، والوحدانية، ورسول الله ﷺ لا يقول باطلًا ولا ينطق عن الهوى وإنما هو الوحي من الله يتلوه قرآنًا عربيًا نزل به جبريل عليه السلام مبلغًا ... إلى الرسول ﷺ أوامر الله، وتَستَنكر الآيات أن يجادل المشركون رسول الله حول الإسراء والمعراج، مؤكدة أنه ﷺ قد رأى جبريل مرة أخرى عند سدرة المنتهى في السماء قرب العرش، وسميت بهذا الاسم لأنه {لا يعلم أحد ما وراءها إلا الله}، ولم يزغ بصر الرسول في ذلك المقام العظيم، وما جاوز الحد، ولقد رأى الرسول آيات عجيبة، كرؤية جبريل – مثلًا – في هيئته الملائكية وله ستمائة جناح على نحو ما ورد في حديث الإسراء والمعراج، ثم تتساءل الآيات في تبكيت عما إذا كان الكفار قد رأوا آلهتهم ؟ وهل لهم من القوة والعظمة ما تعطي وتمنع ؟ وتوبخهم حين نسبوا إلى الله البنات.

إننا هنا في مجال علوي يشع بالروحانية والنورانية، والحدث – المعراج – عظيم حيث تحددت أبعاده في السماء، وحيث كُرّم الرسول في ضيافة الخالق عز وجل، وجاءت أبعاده الآيات تبعًا لهذا العلو، قطعة من الموسيقى، ينبثق منها هذا النور المنغم، المتموج، المتلألئ. الذي يضج بالبهاء والصفاء والعظمة، إنه النغم الساري في البناء التعبيري اللفظي، وفي تراكيب الجمل والعبارات كما يسري في إيقاع فواصلها الموزونة المقفاة.

(وذلك الإيقاع ذو لون موسيقي خاص، لون يلحظ فيه التموج والانسياب .. وهو يتناسق مع الصور والظلال الطليقة .. التي تشع من المجال العلوي الذي

يقع فيه الحدث النوراني والمشهد الرباني، متناسقة مع حركات جبريل وهو يتراءى للرسول)[1]، إنه جو روحي أثر في الإيقاع التعبيري فامتزج به وتناسق معه.

ولقد بدا النص القرآني حريصًا على الإيقاع، ضانًا به أن يختل به أو يفقد تأثيره .. حتى يظل لإيقاع انسيابه الرقراق، وتأثيره المشرق في الوجدان.

والحرص على تسلسل الإيقاع ملحوظ في بعض الفواصل، ففي قوله تعالى: (أفرأيتم اللات والعزى* ومناة الثالثة الأخرى)، نلاحظ أننا لو حذفنا كلمة "الأخرى" لاختلت الفاصلة وتصدع الإيقاع، ولو حذفنا "إذن" من قوله تعالى: (تلك إذن قسمة ضيزى)، لاختل الإيقاع، حيث يستقيم الإيقاع بكلمة "إذن" كما استقام بكلمة الأخرى.

لا يعني هذا أن كلمة "الأخرى" وكلمة "إذن" زائدتان لمجرد القافية والوزن .. فهما ضرورتان في السياق .. وتلك ميزة فنية أخرى أن تأتي اللفظة لا لتؤدي معنى السياق وتؤدي تناسبًا في الإيقاع دون أن يطغى هذا على ذاك، أو يخضع النظم للضرورات)[2].

والقرآن الكريم انفرد بهذا الوجه المعجز فتآلفت كلماته من حروف لو سقط واحد منها أو بدل بغيره، أو اقتحم معه حرف آخر لكان ذلك خللًا بينًا أو ضعفًا ظاهرًا في نسق الوزن وجرس النغمة وفي حس السمع وذوق اللسان وفي انسجام العبارة وبراعة المخرج وتساند الحروف .. وقد يتأتى ذلك بحذف بعض الحروف لملاءمة القافية ونجد ذلك في قوله تعالى: (حكاية عن إبراهيم).

---

[1] الظلال جـ٦ انظر ص ٣٤٠٥/٣٤٠٤.

[2] التصوير الفني ص ١٠٤.

(فَـإِنَّهُمْ عَـدُوٌّ لِّـي إِلَّا رَبَّ الْعَـالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّـذِي خَلَقَنِـي فَهُـوَ يَهْـدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّـذِي هُـوَ يُطْعِمُنِـي وَيَسْـقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْـتُ فَهُـوَ يَشْـفِينِ﴿٨٠﴾ وَالَّـذِي يُمِيتُنِـي ثُـمَّ يُحْيِـينِ ﴿٨١﴾ وَالَّـذِي أَطْمَـعُ أَن يَغْفِـرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ)[1].

ولعلنا نلاحظ أن ياء المتكلم قد خطفت خطفًا في "يديهين، يسقين، يشفين، ويحيين" وذلك محافظة على حرف القافية (النون) .. وذلك لتحقيق قصد الانسجام في إيقاع الفواصل، مع مراعاة أن الفاصلة القرآنية يؤدي لفظها في السياق الدلالة المعنوية التي لا يؤديها لفظ آخر ..

ولعلنا نسترجع – تاريخيًا – أن موسيقى القرآن الكريم وإيقاعه المنغم قد استرعى انتباه العرب وأثر في سماعهم ونفوسهم وأجاش داخلهم ورأوا فيه الحلاوة والطلاوة ونغم اللفظ وجرسه مع جمال المعنى وإحكامه، فللقرآن نظامه الصوتي الفريد (ونريد بنظام القرآن الصوتي، اتساق القرآن وائتلافه في حركاته وسكناته ومدّاته وغنّاته، واتصالاته وسكتاته اتساقًا عجيبًا، وائتلافًا رائعًا يسترعي الأسماع ويستهوى النفوس بطريقة لا يمكن أن يصل إليها أي كلام آخر من منظوم ومنثور .. وأن من شأن الجمال اللغوي والنظام الصوتي أن يسترعى الأسماع ويثير الانتباه ويحرك داعية الإقبال في كل إنسان إلى هذا القرآن ..)[2].

---

(1) سورة الشعراء الآيات ٧٧ – ٨٢.

(2) التبيان في علوم القرآن، محمد الصابوني ص ١٠٩ وانظر مناهل العرفان محمد عبد العظيم الزرقاني جـ ٢؟



# الفصل الرابع

- الأداء التصويري
- ومشاهد الجنة

يغلب التصوير الحسي على مشاهد الجنة في القرآن، وهذا التصوير يجعل المشهد المحسوس حيًّا متحركًا وبارزًا مشخصًا، وتتضافر مكونات المشهد في وحدة جمالية متنوعة بحيث تؤدي الدور المرسوم، وتوحي بالمعنى المستكن خلف المشهد فتخفق القلوب، وتتشوق الأرواح، وتسري في النفس الطمأنينة ويشيع سكون القلب .. وذلك كلما خطر على القلوب خاطر الجنة ومشاهدها البالغة الروعة.

ومشاهد الجنة بما تتضمنه من متع وجمال ولذة قد أعدت للذين آمنوا وعملوا الصالحات، ومن منطق التقابل لإدراك جمال النعمة، وعظمة الرضى الإلهي، ورحمته بالمؤمنين .. تأتي مشاهد النار حافلة بالعذاب ناضجة بالألم، دامغة هؤلاء الذين كفروا بربهم وأنكروا البعث والنشور، ومشاهد الجنة غنية بمفردات التكوين الجمالي، حافلة بصور شتى تنضح بالمتعة في أنساق مادية ولونية وحركية فتتجسد عالمًا كامل التكوين، حافلًا بالروعة والمتعة، والراحة، والرضى .. "وتتراءى عشرات من الأوضاع والأشكال والسمات، وتؤلف بذلك ملاحم فنية رائعة، تتملاها النفس، ويتابعها الخيال، ويستغرق فيها الحس، وتتراءى فيها الظلال، وتضيف إلى الثروة الأدبية الفنية صفحات مفردة، لا شبيه لها ولا مثال"[1].

إنها مشاهد حية تقاس فيها الأبعاد بالمشاعر والوجدان، وتصور المشاهد متفاعلة في النفوس، وقد خلعت عليها الطبيعة الحياة بأبعادها المتنوعة.

---

[1] مشاهد القيامة في القرآن سيد قطب ص ٤٣.

ويصبح النعيم في الجنة، وقد تمتعت به الأجسام وسعدت به الجوارح – دقيقًا في رسمه، عميقًا في تصويره، يحمل الظلال النفسية الرقيقة التي تتبدَّى على الملامح سكينة، وجمالًا وحبورًا واطمئنانًا.

.. ولعل أهم ملامح التصوير في مشاهد الجنة، هو تجسيم ذلك النعيم تجسيمًا ماديًا ملموسًا .. كأنك تلمسه بأصابعك وتحسه بنفسك، ويتحول المشهد المادي إلى قطعة مصورة من الجمال، حيث يتجلى التناسق في مفردات المشهد من حيث التماثل أو التشابه أو التقابل أو التداعي كما يتجلى في جرس الألفاظ ليعطي الإيقاع المناسب لجو المشهد، كما يتجلى في اتساق المشهد كله بألفاظه ومعانيه وجرسه وإيقاعه مع السياق العام الذي يعرض فيه، ذلك أن مشاهد الجنة "مسوقة لأداء الغرض الديني، ذلك الغرض الأول للقرآن، ولكنها تتصل بالوجدان الديني عن طريق الوجدان الفني"[١].

... ولنقف أمام مشهد الجنة الذي ورد في سورة الواقعة، لنتدبر هذا التناسق الجميل في تكوينات المشهد الجمالية.

قال تعالى:

(عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[٢].

---

[١] مشاهد القيامة ص ٤٧.

[٢] سورة الواقعة الآيات ١٥ – ٢٤.

وهـذ مشـهد حسـي مـن مشـاهد النعـيم التـي يتمتـع بهـا أهـل الجنـة فهـم يجلسون على أسرة مذهبة، ويضطجعون في استرخاء لذيذ شأن الإنسان المترف المنعم، يتواجهون في سرور وحبور لا ينظر أحدهم في ظهور أحد انطلاقًا من حسن العشرة وتهذيب الأخلاق.

ويطوف عليهم، يخدمون ويلبون حاجاتهم، أطفال صغار يتسمون بالنضارة والجمال، ومعهم الأقداح والأباريق والكؤوس وقد امتلأت بخمر لذيذة تتدفق من العيون، فيها لذة لمن يشرب، ولا تتصدع من شربها الرؤوس، ولا تغيب الحواس منها أو تتخدر العقول .. وهم في متعتهم تنضاف متع أخرى تشعر باللذة حين يمدون أيديهم فيتناولون ما يشتهون من فاكهة طازجة، ولحم طير على أشهى ما يريدونه.

"قال ابن عباس: يخطر على قلب أحدهم لحم الطير، فيطير حتى يقع بين يديه على ما اشتهى مقليًا أو مشويًا"[١].

ويتألق النعيم الحسي حين يأتي الحديث عن نعيم النساء الذي وعد به أهل الجنة، فهن نساءٌ واسعات العيون، بالغات حدًّا فائقًا من الجمال والبهاء والصفاء وكأنهن في نقاء اللؤلؤ وصفائه، إنه لؤلؤ مكنون لا يتغير حسنه ولا يتبدل ..

سألت أم سلمة رسول الله ﷺ عن هذا التشبيه فقال: "صفاؤهن كصفاء الدر في الاصداف الذي لم تمسه الأيدي".

وهذا التشبيه الحسي يجمع بين طرفين حسيين يشع الجمال منهما ..

---

[١] صفوة التفاسير جـ ٣ ص ٣٠٧.

• ولقد وردت هذه الصورة متكررة في آيات أخرى .. مما يوحي بحرص القرآن على تكريس الصورة الحسية .. والتي تحمل معنى خلقيًا عفيفًا في جوانب الصور الأخرى ..

قال تعالى: (وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ)[١].

إن نساء الجنة يتمتعن بالعفة والحياء، فهن يقصرن أبصارهن على أزواجهن، فلا يسرحن النظر هنا، أو هناك، لما يتمتعن به من حياء يصون عليهن الكرامة، وهو حياء يحتوي النفس والسلوك معًا .. وهو ما يشعر بالحب للزوج والوفاء له، وهن مع هذا الحياء جميلات العيون يتصفن بالحسن والبهاء، فعفتهن عن ثقة بالنفس وعن تكامل في الجمال وليس عن انتقاص في الشكل والهيئة .. كما أنهن كاللؤلؤ المكنون في أصدافه، "لا تبتذله الأيدي ولا العيون، والعرب تشبه المرأة بالبيضة لصفائها وبياضها".

وقال تعالى: (كأنَّهن الياقوت والمرجان)[٢].

فالنساء في جمالهن وصفاء ألوانهن والوجوه المشربة بالحمرة كأنهن الياقوت في صفاء لونه، والمرجان في حمرته الدافئة.

"قال قتادة: كأنهن في صفاء الياقوت وحمرة المرجان، لو أدخلت في الياقوت سلكًا ثم نظرت إليه لرأيته من ورائه".

---

[١] سورة الصافات الآيات ٤٨ – ٤٩.

[٢] سورة الرحمن آية ٥٨.

ولعل الصورة التشبيهية التي وضحت المعنى المراد من الجمال والبهاء، قد عقدت صورة حسية كاملة الأبعاد حتى أصبح الطرفان في الصورة واضحين في مجال التشبيه من حيث البهاء والصفاء".

"إن تشبيهات القرآن الكريم أيًّا كان وجهها صور بيانية، تتضح منها الحقائق الظاهرة، والمعاني العاطفة، كأنها أمور محسوسة مرئية واضحة"[1].

فكأننا نرى رأي العين النساء في الجنة، جمالًا وبهاءً وصفاءً كأنهن قطع من اللؤلؤ والياقوت، تشع وجوهن بالبهاء، ويشي لونهن بإحمرار يتغلغل في بياض ناصع كالدر المكنون .. وتبدو المرأة كأنها قُدّت من اللؤلؤ الخالص، إنه تصوير يريك الجمال والبهاء مجسدين في صورة متحركة تشبع القلب وتريح الحس وتثري الوجدان ..

- وتصور آيات أخرى في "الواقعة" نساء الجنة تصويرًا يعطي تكاملًا لأبعاد الصورة المرسومة للمرأة في الجنة .. فتبدو الصورة متناسقة مع مشهد النعيم الذي يتمتع به الرجل.

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾[2].

الصورة فيها تكوين جديد يعطي أبعادًا عميقة تشرح البهاء والجمال في الآيات السابقة .. فلقد خلق الله نساء الجنة خلقًا جديدًا، فهن دائمًا عذارى، وهن دائمًا متحببات للأزواج، عاشقات لهم.

---

[1] القرآن – المعجزة الكبرى محمد أبو زهرة ص ٢٥٥.

[2] سورة الواقعة الآيات ٣٥ – ٣٧.

قال مجاهد: هن العاشقات لأزواجهن، المتحببات اللواتي يشتهين أزواجهن"، كما أنهن مستويات ومتماثلات في السن، فهن "على ميلاد واحد في الاستواء كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارًا، فلما سمعت عائشة رضي الله عنها ذلك من رسول الله ﷺ قالت: وا وجعاه، فقال رسول الله ﷺ : "ليس هناك وجع"[1].

.. إن مفردات الصورة تعطينا أبعاد المشهد في تكوين يحتوي عناصر المتعة والجمال .. وقد توخت الصورة البعد الحسي انطلاقًا من تقريب البعيد، وتجسيد المتخيل، وتجسيم المعنوي، وتأكيدًا على المعنى الديني العميق الذي يترقرق تحت الصورة .. وهو رضي الله عن عباده المؤمنين المتقين، وإغراءً بالتقوى لنيل هذا النعيم الممتع اللذيذ.

- ويتكرر المشهد في صور مماثلة تقريبًا .. ويتأكد الجمال من خلال السياق وعبر المفردات المحملة بظلال من المعاني المصاحبة في جدّة وتجدّد.

قال تعالى: ( إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ﴿١٧﴾ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ

[1] الكشاف جـ ٤ ص ٥٩.

عَلَـيْهِمْ غِلْمَـانٌ لَّهُـمْ كَـأَنَّهُمْ لُؤْلُـؤٌ مَّكْنُـونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَـلَ بَعْضُـهُمْ عَلَـى بَعْـضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ)[١].

فـالمتقون يتنعمـون بالجنـة نعيمًـا مقيمًـا، ويتلـذذون بمـا أعطـاهم الله مـن أصناف المأكل والمشرب، ويَمُن الله عليهم أن نجاهم من النار

"يقول ابن كثير: وتلك نعمة مستقلة بذاتها مع ما أضيف إليها من دخول الجنة"[٢].

وهم يجلسون في جنتهم على سُرر مذهبة مكللة بالياقوت مرصعة بالدر مع زوجات بيضاوات حسان، ومعهم الأبناء حتى تقر العيون وتهدأ النفوس.

وراحة النفس معنى صاحب أهل الجنة من المتقين، بما يضفي على النفس السكينة وبما يجعل طبيعة المشهد ساكنة في جلال، مطمئنة في رضى، تشع عنصرًا جماليًا نفسيًا يضاف إلى عناصر الحس الممتعة الأخرى .. فالنفس لا تتوزع ولا تنشطر ولا يشغلها شاغل ..

قال ابن عباس، إن الله عز وجل ليرْفَع ذرية المؤمن معه إلى درجته في الجنة .. وإن لم يبلغها بعمله، لتقَرّ بهم عينه).

"ويقول الزمخشري: فيجمع الله لأهل الجنة أنواع السرور، بسعادتهم في أنفسهم، ومزاوجة الحور العين، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين، وباجتماع أهلهم ونسلهم بهم"[٣].

---

[١] سورة الطور الآيات ١٧ – ٢٦.

[٢] مختصر ابن كثير ج ٣ ص ٢٩٠.

[٣] الكشاف ج ٤ ص ٣٤.

وهم يتعاطون في الجنة كؤوس الخمر يتجاذبونها في تلذذ وأنس وسرور، دون أن يقع بينهم ما يسيء، ولا يلحقهم أذى مما يحدث في خمر الدنيا.

"قال قتادة: نزه الله خمر الآخرة عن قاذورات خمر الدنيا وأذاها، فنفي عنها صداع الرأس، ووجع البطن، وإزالة العقل، وأخبر أنها لا تحملهم على الكلام الفارغ الذي لا فائدة فيه، المتضمن للهذيان والفحش ووصفها بحسن منظرها، وطيب طعمها"،

ويخدعهم غلمان مخصصون لهم كأنهم اللؤلؤ جمالًا وصفاءً .. وهم في نهاية المشهد يتسامرون تلذذًا واعترافًا بالنعمة، متسائلين عن أحوال الدنيا وأعمالهم فيها حيث كانوا خائفين من الله مشفقين من عذابه وها هم قد مَنّ الله عليهم بالجنة ووقاهم عذاب جهنم.

ذلك أنهم "عاشوا لى حذر من هذا اليوم، عاشوا في خشية من لقاء ربهم، عاشوا مشفقين من حسابه، عاشوا كذلك وهم في أهلهم، حيث الأمان الخادع، ولكنهم لم ينخدعوا، وحيث المشغلة الملهية، ولكنهم لم ينشغلوا"[1].

- ولعلنا نلاحظ في المشهد تنوعًا جديدًا في التعبير يصور حالة المؤمنين تصويرًا دقيقًا، ومن ثم وشت المفردات بذلك.

فالكأس يتنازعها أهل الجنة، وليس في الجنة تنازع وإنما هى المنادمة على الشراب زيادة في الصفاء وتأكيدًا للمحبة، فالتبادل تلذّذ بالكأس المشتركة وهى تدور عليهم فردًا فردًا مع ما يصاحب الفعل من حركة ونظرة وحديث، وأصبحت

---

[1] الظلال جـ٦ ص ٣٣٩٧.

الكأس قاسمًا للذة مشتركة تبعث على السرور والرضى، وهى ليست واحدة إنما متعددة تحوي شرابًا من نوع واحد.

(والكأس "لا لغو فيها ولا تأثيم" وهو تعبير لطيف، فهذه الكأس لا لغو فيها، كأنما اللغو الذي يهذر به الشاربون من خمر الدنيا كامن في ذات الكأس التي بها يشربون، أما هذه الكأس الفردوسية فمبرأة من الإثم أيضًا)[1].

.. كما أن مشهد السمر اللذيذ الممتع يعكس حالة الاسترخاء المحبب وحولهم كل ما يلذ ويشتهي.

"وبهذا المشهد تتم صورة المتاع، فهو متاع الحسن، ومتاع الخاطر، ومتاع الضمير".

- والمشهد استعراض لمفردات الصورة التي تناولت النعيم ومساحته وتنوع لذائذه، ولعلنا نلاحظ مساحة المجال – المكان – وقد انفسح وتنوع، وغلب على المكان اللون، وأصبحت المساحة تشكل صورة مرسومة لتكوينات لونية حسية تشغل حيزًا في المساحة، وكل تشكيل يتنامى مع الآخر فيعطي للمجال التشكيل العام.

وأرضية اللوحة الكلية مترعة بجمال حسي متعدد الدرجات، فثمة بساط من الخضرة، وقد رصدت على جوانبه أرائك تتحاور لونيًا مع لون المساحة .. فيبرز الذهب والياقوت في تألق لوني وبهاء مشع، وفي وسط المساحة تتبدى الفاكهة في طزاجتها ونضجها أنواعًا من اللون في درجاته المتنوعة، واتخذت نظامًا يعكس جمالًا في مجال الرؤية، حيث رصدت في نظام بديع يكشف الجمال اللوني،

---

[1] مشاهد القيامة ص ٢٠٧.

ويغري بالاشتهاء .. ومن خلال هذه الطزاجة اللونية والحسية، تفوح الرائحة من الفاكهة والطعام، فتثير النفس وتنعش القلب، وتدغدغ الحس.

والكأس شغل حيزًا متحركًا يضوي بالنور ويمتلئ بشراب له لون الخمر يتناسق ويتحاور مع بهاء الولدان وما يتبدى منهم من جمال، والأفراد يضفون على سكون المجال وسكينته حركة متوازنة مع توزع مفردات المساحة وتنوعها.

إن اللون يتسيّد الوحدة التصويرية ويستدعي إثارة الحس البصري واستكناه الخيال لإدراك الصورة، ولقد تكاملت الوحدة بتنويعات تشكيلية منسجمة.

**وثمة نمط مشهدي آخر يتناول صور النعيم فيفصلها تفصيلًا، قال تعالى:

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن

فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا)[١].

الآيات الكريمة تشي بصور النعيم الحسية المفصلة، ولقد وصفت الأبرار بما يناسب الهادئ الرغيد، فشرابهم في الجنة ممزوج بالكافور من عين تتفجر تفجيرًا، فيها الكثرة والوفرة، ولذة الشعور به تتضاعف وترقى، وهو نعيم يتلاءم مع عباد الله، الأبرار، الذين شفّت قلوبهم وأخلصت لله العبادة، وقد آنسهم الله وأكرمهم ولعل الإضافة المعنوية في عبارة (عباد الله) توحي بهذا المعنى، ومن ثم صورت الآيات هؤلاء في صورة وضيئة شفافة لقلوب مخلصة عازمة على الوفاء، إنهم يلتزمون بدينهم شاعرين بثقل الواجب، يتصفون بشعور البر والعطف والخير، يخافون الله ويخشون يوم الحساب، ومن ثم أسرع السياق بوقايتهم من شر هذا اليوم وإنعامه عليهم بالجنة.

وكانت صورة الجنة بمفرداتها واسية بهذا الجزاء، وتمازجت الصورتان صورة المحتفى به، وأدوات الاحتفاء.

فهم يتمتعون بجو جميل لا هو بالبارد ولا هو بالحار، يسترحون جمال الظلال، فهم لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرًا، كما أن الظلال دانية، والثمار دانية، قال ابن عباس: إذا همّ أن يتناول من ثمارها تدلّت إليه حتى يتناول منها ما يريد، وتضاف صورة جديدة لألوان المتعة واللذة التي ينعم بها الأبرار المتقون وهى أنهم يلبسون ثيابًا غاية في الجمال والنعومة حيث صنعت من الحرير ما رقَّ منه وما غلظ كما يتزينون بالأساور الفضية .. وهذا النعيم كله إنما هو عطاء من الله، عطاء كريم من معطٍ كريم.

---

[١] سورة الإنسان الآيات ٥ – ٢٢.

ومن الجدير ذكره أن الأساور قد تنوع وصفها في السياق القرآني فقد وردت في سورة الكهف (يحلون فيها من أساور من ذهب)، وفي سورة فاطر (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا) .. (إنهم تارة يلبسون الذهب فقط، وتارة يلبسون الفضة، وتارة يلبسون اللؤلؤ فقط على حسب ما يشتهون، ويمكن أن يجمع في يد أحدهم أسورة الذهب والفضة واللؤلؤ)[1].

وثمة تفصيل آخر يدور حول مفردة من مفردات الصورة، فهذه أواني الشراب الفضية صافية كالزجاج، متنوعة الأحجام في تناسق بديع، ثم هي تمتزج بالزنجبيل مرة وبالكافور مرة أخرى، كما تملأ من عين عذبة جارية .. ولعل المناسيب الجمالية مقدرة بحيث يتحقق المتاع والجمال معًا، ومما يزيد جمال الأواني أن الساقين أطفال في سن الصباحة والوضاءة كأنهن قطع من اللؤلؤ الفائق الجمال.

إن السياق يمد بأبصارنا فحيثما اتجه النظر فثمة نعيم عظيم وملك كبير، وتتمازج مفردات المشهد في إبراز هذا النعيم العظيم، فعباد الله يتنغمون بمتاع الجنة من شراب، وظلال، وثياب وحُلى.

وصورة عباد الله وهم على أرائكهم صورة تبين هذا النعيم المقيم، فثمة استرخاء وتمدد، وراحة واسترواح وإحساس بالسعادة تشرق به الوجوه، فتلك الأشجار التي تلقي بظلالها تنويعًا لألوان المتاع، تتدانى بأغصانها المترعة بالثمر فتتدلى الثمار حتى تصبح عند أطراف الأصابع تلتقطها في شوق ولذة.

---

(1) صفوة التفاسير جـ٣ ص ٤٩٥.

• وفي سورة محمد يتضح لنا بعد آخر من أبعاد الصورة، قال تعالى: (مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ)[1].

الآية الكريمة تعطينا بُعد آخر لصورة الجنة، بُعدًا تتكامل فيه الجزئيات، وتسيطر مفردة واحدة على مساحة، إنها الأنهار الجارية، الممتلئة المتدفقة التي ينبثق من جريانها هذا الصوت الجميل فتستعد به النفس ويمتلئ القلب سرورًا .. إن العين في رصدها للمجرى تحدث لذة جمالية، والأذن وهى تتسمع هذا الصوت تلتذ بإيقاع الحركة المتناغم الداخل إلى الوجدان الباعث في الشعور سرورًا وفرحًا .. ثم تأني حاسة التذوق بما يسد رغبات النفس والجسم معًا.

لقد توزعت المفردة الكبرى (الأنهار) إلى جزئيات تتباين من حيث المادة التي يحتويها المجرى .. إنه تنوع في المحتوى، يحددد طبيعة النهر وسر النعمة فيه.

فثمة أنهار تجري فيها المياهُ الصافية العذبة التي لا يتغير طعمها أبدًا، فتظل تحتفظ بعذوبتها، وأنهار تمتلئ باللبن المصفى حلاوة ودسمًا لا يفسد ولا يتحول، وأنهار تجري بخمر لذيذة الطعم يتلذذ بها الشاربون، خالية من كل ما يُفسد أو يسيء، وأنهار جارية بالعسل المصفى حسن اللون والرائحة، طيب الطعم حلو المذاق، وذلك فضلًا عن الثمرات المتعددة من كل نوع وصنف.

---

[1] سورة محمد الآية ١٥.

ولعلنا نلاحظ الأداء التعبيري الذي يصف الصفاء في محتوى النهر، ماءً ولبنًا، بأنه مرة "غير آسن" ثم "لم يتغير طعمه" ووشت المفردات بالمعنى عن طريق الاثبات .. ثم تتحاور الألفاظ لتثبت المعنى وتؤكده.

وصور النعيم ترق وتشف كلما ارتقى السامعون في درجات الرقي الأخلاقي، ولقد واكبت الآيات أنواع المخاطبين وتنوع حالاتهم التي تتكرر كنماذج بشرية.

"والله الذي خلق البشر أعلم بمن خلق، وأعرف بما يؤثر في قلوبهم، وما يصلح لتربيتهم، ثم ما يصلح لنعيمهم ولعذابهم، والبشر صنوف، والنفوس ألوان، والطبائع شتى، تلتقي كلها في فطرة الإنسان، ثم تختلف وتتنوع بحسب كل إنسان، ومن ثم فصل الله ألوان النعيم والعذاب، وصنوف المتاع والآلام وفق علمه المطلق بالعباد"[١].

وهذا هو الهدف الديني الذي يترقرق خلف مشاهد الجنة.

**والجنة هى ملاذ الآمنين المتقين.

ولقد وردت صورة الجنة في آيات قرآنية بما يصفها بالهدوء والسكينة، قال تعالى في سورة الواقعة: (لا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيمًا إلا قليلًا سلامًا سلامًا)، فالجنة مكان مبرأ من كل ما يسيء أو يجرح المشاعر، إنه مكان يصون النفس ويحافظ على الكرامة ويحقق الاحترام، إنه ليس المكان الجميل فحسب وإنما هو المكان النظيف، فلا يصل إلى أسماع أهل الجنة كلام فاحش أو لفظ نابٍ فلا ارتكاب للإثم ما داموا لا يقولون أو ينطقون فاحشًا من القول أو هذرًا

---

[١] الظلال جـ ٦ ص ٣٢٩١.

من الحديث، وينحصر القول والحديث في إشاعة التحية الجالبة للمسرة,والمودة، فكل واحد يلقي السلام على أخيه، فيفشو السلام ويسود الإلف.

وهذا تصوير نفسي جميل حيث تعطي الآية دلالة للشعور الداخلي الذي يجعل النفس تشعر بالسكينة والهدوء، وتُقْبل على التمتع في شوق ورضى وإحساس باللذة لا يكدره كدر ولا تشوبه شائبة .. ومن ثم ورد التكرار ليكرس هذا المعنى النفسي الجميل، ولتصبح حياتهم سلامًا وليشع في جنبات الجنة السلام حتى ليضحي الجو ناعمًا آمنًا والسلام يبسط أجنحته وينشر عطره الذي يشمل النفس والمكان معًا.

وقال تعالى في سورة مريم: ﴿لا يسمعون فيها لغوًا إلا سلامًا ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيًا﴾ "فلا فضول في الحديث، ولا ضجة ولا جدال، إنما يسمع فيها صوت واحد يناسب هذا الجو الحالم الراضي .. هو صوت السلام"[1].

ويكلل هذا الجو الناعم سماعهم للملائكة يسلمون عليهم على وجه التحية والتكريم، ولقد تمازج التعبير عن الرزق مع هذا الجو الناعم الرضيِ فالرزق في الجنة مكفول لا يحتاج إلى كدّ، ولا يشغل النفس، ولا يقلقها ولا يجعل للخوف سبيلًا إلى القلوب.

إنه أمان نفسي مكفول للنفس في سكينتها ورغباتها معًا، وهذا البعد الصوتي الجميل – من أبعاد الصورة الكلية – ينساب في جنبات المكان في إيقاع محبب، يريح النفس ويرطب الوجدان.

---

[1] مشاهد القيامة ١١٩.

# الفصل الخامس

## الأداء التصويري
## في
## الحقائق والأحكام

.. لمسنا فيما سبق كيف أن التصوير الفني بدلالاته المصاحبة يعتبر أحد الأدوات التعبيرية المميزة في القرآن الكريم، فالتصوير يحيل المعاني المجردة والذهنية، والمشاهد، والمواقف، والوجدان .. إلى مُحسة – مؤثرة في النفس، بالغة غاية التأثير ..

والقرآن في مجاله التصويري معجز بكل المقاييس الفنية، وهو في هذا المجال متفرد في بابه .. من حيث الأداء اللفظي والخيالي .. مما يجعلنا نقرر في وضوح لا لَبْس فيه أنه معجزة أدبية خارقة تحدى بها العري قديمًا وحديثًا وإلى يوم الدين.

قال تعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا)[1].

.. ولكننا يجب أن نقرر أيضًا أن مجالات الإعجاز ليست مقصورة على هذا الجانب التصويري الإبداعي .. (والقول بأن القرآن معجزة أدبية قبل كل شيء يجعل القرآن كتاب أدب ولغة وبلاغة، في حين أنه كتاب تشريع وتعليم وتنظيم ومن الطبيعي أن يكون، وهو كلام خالق البشر وآدابهم ولغاتهم وبلاغتهم، معجزًا في أسلوبه وصياغة تراكيبه وتعابيره وفوق كل التعابير والتراكيب)[2].

.. والقرآن الكريم كلٌّ في إعجازه ليس فيه جزء أبلغ من جُزء، أو أبين .. ومن ثم فإن من يعتبرون أن التعبير بالتصوير المجازي أبلغ من التعبير بالحقائق قد

---

(1) سورة الإسراء الآية ٨٨.

(2) القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جـ٤ ص ٧٧.

جانبهم الصواب .. إذ ربما ينطبق ذلك على مجالات الإيداع البشري، نثرًا وشعرًا، فكرًا وأدبًا.

أما القرآن، فلقد بلغ أقصى درجات البلاغة في الأداء التعبيري، سواء جاء ذلك عن طريق التصوير أو جاء عن طريق التعبير بالحقيقة.

والحقيقة هى ما تدل عليه الألفاظ فيما وضعت له من غير خروج إلى مجاز أو تشبيه .. والحقيقة تستعمل في القرآن في مواضع كثيرة كالأحكام الشرعية التي تحتاج إلى أن تكون الكلمة ذات دلالة محددة ليتم التعريف بالأحكام كاملًا، كما تأتي في مجال الاستدلال القرآني على وحدانية الله بالنظر في الكون وآيات الله فيه.

وإن بلاغة الحقائق التي تذكر من غير استعانة بمجاز أو تشبيه لا تقل عن المواضع التي كان فيها .. تشبيه أو مجاز.

يقول الباقلاني: (إن عجيب نظمه، وبَديع تأليفه لا يتفاوت، ولا يتباين، على ما يتصرف فيه من الوجوه التي يتصرف فيها من قصص، ومواعظ، وحكم وأحكام، وإعذار وإنذار، وعد ووعيد، وتبشير وتخويف، وأوصاف، وتعليم أخلاق كريمة، وشيم رفيعة، وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التي يشتمل عليها)[1].

وعلماء البلاغة يرون جمالية المجاز أبلغ من الحقيقة .. في تأدية المعنى .. ولكن إذا كان التعبير بالحقيقة ينهض بأداء المعنى كاملًا فلا مزية للعتبير بالمجاز أو بالصورة – فالحقيقة تنافس المجاز، ولكلٍّ وسيلته وأداته.

---

[1] اعجاز القرآن، الباقلاني: تحقيق السيد صقر ص ٣٦.

والقرآن الكريم – وهو المعجزة الخالدة والحجة الدامغة في الفصاحة والبلاغة وجماليات الأداء التصويري – قد حفل بالحقائق وعبر بها في عدد ضخم من الآيات.

واشتمال القرآن على الحقيقة غير منكور (ولو كان التعبير بالحقيقة أقل بلاغة من التعبير بالمجاز لخلا القرآن كليةً من الحقيقة، وفضل التعبير بالمجاز في جميع المواقف والأحوال، في تشريعه وتعليمه وترغيبه، ولسار على نمط واحد من التخييل والتأويل لكي يترك أثره الذي لا يتركه التعبير المجرد الدقيق)[1].

وفي الحقيقة فإن آيات القرآن تبرز الحقائق في قيمة تأثيرية لا تقل عن بلاغة التصوير المجازي، فالبلاغة قد تقتضي التوضيح والتحديد كما قد تدعوا إلى التأكيد أو الوفاء بالمعنى عن طريق الإشارة أو الرمز، ولكل موقف ما يناسبه من الأداء، عن طريق الحقيقة أو التصوير، بحيث لا يغني أحدهما عن الآخر في نقل المعنى.

يقول الباقلاني: (وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع ما يتصرف فيه من الوجوه على حدٍّ واحد، في حسن النظم وبديع التأليف والوصف، لا تفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العلا، ولا إسفاف فيه إلى المرتبة الدنيا)[2].

ولنأخذ نموذجًا قرآنيًا وردت فيه الأحكام مجردة في أداء تعبيري حقيقي.

---

(1) القرآن والصورة البيانية ص ١٢٥.

(2) إعجاز القرآن ص ٣٧ الباقلاني.

قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾[1].

الآيات القرآنية الكريمة تدور حول محور هام وواضح وهو غرس القيم الأخلاقية في نفوس المسلمين .. وهو محور تربوي يخاطب النفس المسلمة خطابًا تربويًا إسلاميًا يهدف منه إلى تشكيل النفس المسلمة تشكيلًا إيمانيًا خالصًا ومبرءًا من الشوائب، ومن ثم تتدرج الأحكام حتى تصل من الشدة إلى حدِّ الرجم ..

إن حدّ الزنا حكم شرعي، فالجلد للبكر من الرجال أو النساء .. ومعنى البكر هنا مَنْ لم يحصن بالزواج .. ولقد ثبت الجلد بالقرآن، والرجم للمحصن من الرجال أو النساء، ولقد ثبت الرجم بالسنة، والآيات تتناول حد الجلد .. وتتشدد في تنفيذه دون هوادة، وتطالب بعدم تعطيل الحد في الجلد أو الترفق

(1) سورة النور الآيات ٢ – ١٠

فيه، فجريمة الزنا من الشناعة بحيث لا يكون للرحمة مجال فيها، ويجب إقامة الحدّ في مشهد عام تحضره جماعة المؤمنين ليكون أبلغ في الزجر وأوجع في الروع، فإن الفضيحة قد تنكل أكثر مما ينكل التعذيب.

وتلتفت الآيات إلى موقف تشريعي آخر مرتبط بجريمة الزنا، وهو حكم يرتبط بتكوين الحياة الزوجية عن طريق الزنا، فالزاني لا يحق له الزواج من المؤمنة العفيفة، ذلك أن المشترك الديني والخلقي إن صح التعبير غير متوفر، وهو أساس هام في الإسلام لصلاح الأسرة المسلمة، وإنما لا يقع الزاني ولا يتزوج إلا بزانية مثله أو بمشركة، زيادة في الخسة والدناءة وابتعادًا عن طريق الحق القويم، والزانية لا يحق أن يتزوج بها المؤمن العفيف وإنما يتزوجها من يلاءم طبعها خسة ودناءة وقبحًا، فالنفوس الطاهرة تأبى الزواج من النفوس الفاجرة الفاسقة.

(قال الإمام الفخر: من أحسن ما قيل في تفسير هذه الآية، إن الفاسق الخبيث لا يرغب في نكاح الصوالح من النساء، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة مثله، أو في مشركة، والفاسقة الخبيثة لا يرغب في نكاحها الصلحاء من الرجال وينفرون عنها، وإنما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة والمشركين)[1].

فالآية الكريمة توضح لنا طبيعة المؤمن العفيف فهى تفيد (نفور طبع المؤمن من نكاح الزانية ونفور طبع المؤمنة من نكاح الزاني واستبعاد وقوع هذا الرباط بلفظ التحريم الدال على شدة الاستبعاد، (وحرم ذلك على المؤمنين)، وبذلك تقطع الوشائج التي تربط هذا الصنف المدنس من الناس بالجماعة المسلمة الطاهرة النظيفة)[2].

---

[1] صفوة التفاسير ج ٢ ص ٣٢٦.

[2] الظلال ج ٤ ص ٢٤٨٨.

والإسلام وهو يحدد هذه العقوبات يحارب الحيوانية التي لا تفرق بين جسد وجسد، أو لا تهدف إلى إقامة حياة أسرية مشتركة، وهو يدعو إلى أن تقوم العلاقات الجنسية على أساس من المشاعر الإنسانية الرقيقة، فالزنا نكسة حيوانية وردة إلى الغرائز المتوحشة، يطيح بكل القيم والثوابت الدينية، فالإسلام ينظم هذه الدوافع الغريزية الفطرية، ويعلو بها على المستوى الحيواني، ومن ثم جاء التشديد في عقوبة الزنا (لدفع النكسة الحيوانية عن الفطرة البشرية ووقاية الآداب الإنسانية التي تجمعت حول الجنس، والمحافظة على أهداف الحياة العليا من الحياة الزوجية المشتركة القائمة على أساس الدوام والامتداد)[١].

ومن جماليات الأداء القرآني أن الزانية قدمت على الزاني، ثم قدّم الزاني عليها مرة أخرى .. وهذا التقديم والتأخير يحمل دلالة لها معنى مصاحب لكل منهما، فالمرأة هى أداة الإغراء ومبعثه ومن ثم جاءت مقدمة، على حين تأخرت في السياق لأنها وردت في مجال النكاح والرجل أصل فيه ..

يقول الزمخشري (والمرأة هى المادة التي منها نشأت الجناية، لأنها لو لم تطمع الرجل، ولم تومض له، ولم تمكنه، لم يطمع ولم يتمكن، فلما كانت أصلًا .. بديء بذكرها، وأما الثانية فمسوقه لذكر النكاح، والرجل أصل فيه، لأنه هو الراغب والخاطب ومنه يبدأ الطلب)[٢].

.. ولقد تضمنت الآيات حدَّ القذف، والإسلام لا يعتمد العقوبة الرادعة وحدها وسيلة لحياة أسرية نظيفة قائمة على الخلق الإسلامي بل يعتمد الضمانات الوقائية المساعدة والداعية إلى الطهارة والتطهر.

---

(١) الظلال جـ ٤ ص ٣٤٨٩.

(٢) الكشاف جـ٣ ص ٦٢.

فبعد أن حددت الآيات عقوبة الزنا، وجعلت الزناة منبوذين في المجتمع، تطرقت إلى حدّ القذف ووصفت له قوانينه ومواصفاته الشرعية حفاظًا على كرامة الإنسان من أن تهدر بفعل حقد حاقد، أو إشاعة كاذب.

فالذين يقذفون المحصنات العفيفات المؤمنات بالزنا دون أن يؤيدوا قذفهم بأربعة شهود عدل يشهدون بارتكاب الفاحشة، فالحد الشرعي الواجب على كل منهم أن يجلد ثمانين جلدة، فهم يستحقون هذا العقاي لكذبهم وخوضهم في أعراض الناس بالبهتان، ولزيادة تحقير هؤلاء أكدت الآية على عدم قبول شهادة هؤلاء .. لأنهم فاسقون خارجون عن طاعة الله.

قال ابن كثير: (أوجب تعالى على القاذف إذا لم يقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام: أحدهما أن يجلد ثمانين جلدة، والثاني: أن تردَّ شهادته أبدًا، والثالث: أن يكون فاسقًا ليس بعدل لا عند الله ولا عند الناس)[1].

والذين يتوبون ويرجعون إلى الحق ويندمون على ما فعلوا من اقتراف الذنب يُرَدّ إليهم اعتبارهم وتقبل شهادتهم.

ولقد شدد القرآن في عقوبة القذف فجعلها قريبة من عقوبة الزنا .. فشيوع الاتهام بلا دليل مجلبة للآلام التي تصيب الحرائر والشرفاء معًا، ومدعاة للوقوع في الإثم، وسببًا في افتقاد الطمأنينة ..

إن ترك الألسنة تلقي التهم بلا دليل يترك المجال فسيحًا لمن شاء أن يقذف، فتصبح الجماعة وتمسي وأعراضها مجرّحة وسمعتها ملوثة، والشك يمرح

---

[1] مختصر ابن كثير جـ ٢ ص ٥٨٣.

في كل بيت ويتغلغل إلى كل نفس .. ومن ثم جاءت العقوبة بمقدار هذا الهول النفسي الناتج عن جريمة القذف.

.. أما في قذف الرجل لامرأته فالوضع يختلف ..

فالرجل قد يقذف امرأته لأمر رابه فيسأل عما شاهده وقد لا يكون المواقعة فيرجع عن باقي الشهادات ولا يكون هذا قذفًا يستوجب الحد لأن الشهادات لم تتم فإذا أتمها وسكتت المرأة رجمت واذا حلفت درأت عن نفسها الحد ثم هو قد يكون كاذبًا فالزواج القاذف يشهد أربع شهادات – تقوم مقام الشهداء الأربعة في حد القذف – إنه من الصادقين في اتهامه زوجته بالزنا، ثم يحلف في الخامسة بأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين في قذفه لها .. ويدفع عن الزوجه أن تحلف أربع مرات إنه لمن الكاذبين في قذفه لها .. ويدفع عن الزوجة أن تحلف أربع مرات إنه لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنا، وتحلف في الخامسة بأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين في قذفه.

والآيات الكريمة فيها تيسير على الأزواج يناسب دقة الحالة وحرج الموقف ومن ثم كان التعقيب، بأن ذلك فضل من الله، وبأنه تواب يقبل التوبة بعد مقارفة الذنوب.

**هذه الآيات الكريمات التي تناولت حد الزنا ثم حد القذف العام وحد القذف الخاص، وردت خالية من التصوير الذي يعتمد على المجاز ورسم الصورة الحسية ومع ذلك فلقد بلغت من البلاغة والبيا وتصوير الحقيقة حدًّا عاليًا من الإعجاز .. فالتآلف بين الألفاظ والمعاني تآلف ثابت ومتواصل، فكل مفردة

قرآنية تتناول حكمًا، تومئ إلى ما بعدها وتوضح الهدف من المعنى المراد .. وبيان التعليل.

فمفردة الزاني والزانية .. تؤكد الجرم الأخلاقي في ظل تشريع إسلامي، وتوحي بظلال من التداعي التاريخي المرفوض في الجاهلية حين كان الأمر معروفًا ومسلمًا به – حتى أن المرأة كان يدخل عليها أكثر من رجل – ثم تحدد هى لمن يكون وليدها .. فجاء الإسلام ووضع الحد لهذه الجريمة .. وورود اللفظ بعد مفتتح السورة الدال على الآيات البينات التي وردت بها، دليل على أهمية الفعل وتجريمه ووضع الحد الملائم له.

.. كما يدل اللفظان كما يقول الزمخشري على الجنسين المنافيين لجنس العفيف والعفيفة مما يوحي بالحفاظ على هذه العفة من أن تدنس أو تختلط معالمها .. وجاءت مفردة "الجلد" أمرًا واجب التنفيذ، فالرجل يجلد ليس عليه إلا إزاره .. وكذلك المرأة، ليكون الحد موجعًا .. ويشعر الجِلد الحي، الذي نعم بلذة الفِسقْ، بحدة الألم وقسوته، فتصبح اللذة مصحوبة بألم شديد بدني ثم نفسي مما يثير النفور منها عندما يتصور الواقع في الخطأ مرارة العقاب.

ولأن الجريمة شنعاء تؤدي إلى الفساد وتدعو إلى الحيوانية جاء النهي في الآية مصحوبًا بتنفيذ الأمر "فاجلدوا" .. فالنهي يدعو إلى عدم الرأفة .. ويعني النهي في معناه العميق إلى التصلب والتشدد في تنفيذ حدود الله، ثم يعود الأمر مرة أخرى ليطالب بمشاهدة الجماعة لتنفيذ الحد لما فيه من تشهير بالفاعل، ولما له من ردع وزجر لغيره .. ثم تأتي المفردة القرآنية {حرّم} لبيان تحريم الزواج من الزاني أو الزانية لما يتصف به كل منهما من الفسق والفجور،

وبُنى الفعل للمجهول لبيان إسناد أمره إلى الله سبحانه، بحيث لا يجب المراجعة فيه بل التصلب في تنفيذه ..

• عن عائشة رضي الله عنها أن الرجل إذا زنى بامرأة ليس له أن يتزوجها، ويتضح لنا الجانب الآخر في تصوير القيم الأخلاقية الداعية إلى حفظ الكرامة ومراعاة العفة والبعد عن التجريح في القول .. وكشف لنا اللفظ القرآني هذا المعنى بلفظين .. هما (يرمون المحصنات) ..

فالمحصنات هن العفيفات، وسميت العفيفة محصنة لأنها منعت نفسها عن القبح .. ودلالة الاسم تشي بالتحصن المنيع .. ومن حروفه جاء الحصن المكين المانع .. وتصوَّر امرأة قد اتخذت من النيل والعفة والشرف حصنًا لها، تستكن وراءه وتحمي نفسها وشرفها به ..

فكيف ينال الفاجر من هذا الحصن ؟ لابد أنه، من حقده، ومن نفسه المريضة – يحاول محاولات مستميتة ليخترق هذا الحصن – حتى يصل إلى قلبه فيدميه .. وكأنما نحن أمام صورة حِصن منيع يحاول أن يصل إليه إنسان بشتى الطرق فحين يعجز عن تسلقه، أو الدخول فيه، أو الإلتفاف حوله، يلجأ إلى رميه بالحجارة أو وسائل أخرى ..

وكذلك الفاسق الذي يحاول بنفسه المريضة، أن يصل إلى المرأة العفيفة فتتكسر محاولاته، وتطيش سهام إغراءاته ومحاولاته، فلا يبقى له إلا أن يقذفها نكالًا وحقدًا .. إنها صورة تعبيرية بالغة الجمال.

ومن ثم جاء لفظ "الرمي" .. بيانًا لحالة الفاسق الذي يتهم العفيفة، وهى حالة نفسية في المقام الأول .. والتنظيم لابد أن يعالج حالات النفس هذه في

مرضها وفسقها، ومن ثم جاء القذف بتعبير الرمي لما فيه من كشف لحالة الترصد التي يريدها الرامي .. وحالة الغيظ التي تعتوره .. فيرمي قذفه لعله ينال منها بعد ما عجز في الحقيقة ..

فكأن الكلمة المقذوفة في حق العفيفة حجرٌ صلدٌ يخدش ويؤذي ويميت .. وهذا في الحقيقة وارد .. ولعلنا نذكر في مجال حديث الإفك كيف كانت حالة السيدة عائشة – حتى كان الموت أحب إليها وذلك من شدة الآلام التي عانتها في هذا الموقف العصيب.

ولننظر إلى مفردة قرآنية أخرى وهى "يدرأ" .. ومعناها .. يدفع .. ولننظر إلى حركة الرمي، ثم إلى حركة الدفع اتقاءً له .. فنتصور صورة حية لامرأة عفيفة، تمتد يداها في حرص بالغ لتتلقى هذه الرميات وتدفعها عنها حتى لا تُصيبها بأذى أو بمكروه نفسي أو اجتماعي.

فثمة حركتان متبادلتان حركة الرمي، وحركة الدفع .. وكلتا الحركتين تشيان بنفسية الرامي والمدافع على حدٍّ سواء ..

ولأن الكلمة /الرمي .. شديدة الوقع، ولأنها قد تقذف باستِهتارٍ ولا مبالاة كان العقاب الصارم الذي شرعه القرآن .. حتى يظل اللسان عفيفًا وحتى تظل المحصنة خلف حصن العفة لا يؤذيها حاقد أو فاسق ..

.. إن التآلف بين الألفاظ والمعاني، من ملامح إعجاز الأداء التعبيري في القرآن .. (فإذا وجدت الألفاظ وفق المعنى، والمعاني وفقها، لا يفضل أحدهما على الآخر، فالبراعة أظهر والفصاحة أتم)[1].

---

[1] إعجاز القرآن ص ٤٢.

ومن ثم فإن ما ورد في الأداء القرآني في مجال التعبير عن الحقائق والأحكام بعد في قمة البلاغة بالرغم من خلوه من المجازات أو الصور البديعة، ذلك لأن التعبير القرآني يميل إلى وضع اللفظ في معناه الحقيقي لأننا في مجال تشريع وتنظيم وبناء مجتمع ديني قائم على الشرعية وأحكامها.

يقول الباقلاني في هذا المجال: مجال ارتباط الأحكام بالألفاظ البديعة المعبرة، والتي هى إحدى مجالات الإعجاز في ارتباطها بالمعاني.

(.. إن المعاني التي تضمنها في أصل وضع الشرعية والاحكام والاحتجاجات في أصل الدين، والرد على الملحدين، على تلك الألفاظ البديعة، وموافقة بعضها بعضًا في اللطف والبراعة، مما يتعذر على البشر ويمتنع)[1].

**ونتذكر نموذجًا آخر لبعض آيات الأحكام، التي ترد على الحقيقة مع التأكيد على أن القرآن كتاب الله لا تتفاوت عباراته، فلا فرق في البلاغة بين ما جاء منه حقيقة أو ما جاء عن طريق التصور والمجاز، قال تعالى: (وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا

[1] نفسه ص ٤٢.

اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُم بِهِ مِن بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)[1].

الآيات القرآنية وردت في سياق المنهج القرآني الداعي إلى تنظيم المجتمع المسلم واستنقاذه من رواسب الجاهلية، وذلك بتطهيره من الفاحشة واستنقاذ المرأة مما كانت ترزح تحته من ظلم وعنت.

فأول الأحكام التي وردت في الآيات: تحريم الزواج من زوجة الأب، لما فيه من فحش وفساد، فهي تعتبر من جانٍ كالأم، كما أن الأمر يستدعي شعورًا عدائيًا بين الأزواج، مما يؤدي إلى كراهية الأب، فضلًا عن أن المرأة تصبح إرثًا للولد مما يهبط بمكانتها.

ومن ثم جاء التشديد على تحريم هذا الفعل الذي كان شائعًا في الجاهلية، إنه أحد الرواسب الجاهلية المقيتة .. ثم بينت الآيات المحرمات من النساء .. فمنهن المحرمات بالنسب الأمهات والبنات والأخوات والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت.

---

[1] سورة النساء الآيات ٢٢ – ٢٥.

ومنهن المحرمات بالرضاعة حيث أنزل الله الرضاعة منزلة النسب، وقد وضحت السنة النبوية الحكم في هذا الموضع في قوله ﷺ .. (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب) ..ومنهن المحرمات بالمصاهرة، كبنات الزوجات، أو زوجات الأبناء أو الجمع بين الأختين.

.. إن التحليل والتحريم من شأن الله وحده لأنهما أخص خصائص الألوهية فلا تحريم ولا تحليل بغير سلطان من الله ..

وآيات الاحكام هذه جاءت على الحقيقة، حيث لم تستعمل فيها التصوير أو المجاز .. ومع ذلك فهى غاية في الإبداع والإعجاز، انطلاقًا مما ورد ذكره في الآيات السابقة من تآلف بين اللفظ والمعنى .. وأنكل كلمة تومئ إلى الكلمة التي تليها لبيان الحكمة وإيراد التعليل.

ولقد بدأت الآيات بما كان مترسبًا في الجاهلية من عادات مقيتة كزواج الأبن من زوجة الأب .. ولقد بدأت الآيات بها لما لها من خطر وشأن .. فالابتداء بالتحريم هنا دليل على أهمية الفعل وخطورته فضلًا عن قوة التأثير الذي يضمنه، ومن ثم جاء وصف الفعل بصفات قاسية .. حيث وصفته الآيات بأنه (فاحشة ومقت).

أما أنه فحش فهو ينافي الطبائع السليمة والأخلاق الكريمة .. وأما أنه مقت فلأنه ممقوت عند الناس ولذلك كان العرب يسمونه (نكاح المقت)، ذلك أن الجاهلية كانت تكرهه، والمقت هو البغض الشديد لمن تعاطي القبيح.

لقد تآلفت الألفاظ مع المعنى المراد وبينت هول الفعل وحرمته كلية – واستنقذت المرأة من ظلم وقع عليها طويلًا، وأعادت لها كرامتها، كما حفظت

للأسرة تماسكها ونظامها .. وقد وردت الأحكام في تناسق تام وارتباط حميم .. بحيث يدعو الحكم ما وراءه في تسلسل منتظم ..

(وكان من مقتضى التناسق المعنوي أن تذكر بعد صلات النسب الصلات السببية وهى المصاهرة، فابتداء بأمهات الزوجات، ثم اتجه الذهن .. إلى الربائب، لأنه إذا ذكرت الأم تطلعت النفس إلى ذكر حكم البنت .. ثم ذكر حكمة التحريم وهو أنهن في حجره وكبناته .. ولما يستدعيه قانون تداعي المعاني أن تذكر زوجات الأبناء .. وهكذا نرى أن المعاني كل واحدة تدعوها السابقة فتلاحقها في اتساق ونسق جامع)[1].

ولقد وردت الآيات في سياق متكامل، ونغم متآلف، وصورة عامة تتمثل في رسم صورة عامة لاسرة مسلمة متكاملة، فيها التراحم، والتواصل والمحبة .. وما التشديد في التحريم ومجالاته إلا لإبقاء هذا التراحم موصولًا في الأسرة جيلًا بعد جيل ..

إن ما اختص به القرآن من تقابل بين الحقائق في البيان وتوافقه في العبارات من غير منافرة أو مفاضلة متحقق وثابت، كما أن العبارات اختصت بكمال الاشراق ونوره ..

إن جمال التعبير يشرق دائمًا، وحلاوة النغم تنساب في النفوس، كما تنطلق الاحكام إلى العقل والقلب معًا، محملة بالعظة والعبرة والتوجيه إلى العدل والرحمة في بناء النفوس وإقامة أواصر الاسرة على أساس متين.

---

[1] القرآن المعجزة الكبرى ص ٢٣٧.

ولعلنا نلاحظ الإيجاز الكامل في قوله تعالى: (حرمت عليكم أمهاتكم) .. وجاء التحريم اطلاقًا .. ولكن العبارة تحتوي على مجاز مرسل .. من أهدافه الإيجاز الذي يصاغ المعنى فيه بإرادة شيء محذوف يدل عليه السياق .. فالمراد هنا هو نكاح الأمهات .. مما يعني قطعية الدلالة ..

كما أن الأداء التعبيري لجأ إلى الصورة البيانية الجزئية .. في قوله تعالى: (واللائي دخلتم بهن) .. إذا إن المراد هو الجماع والوطء .. ولكن الأداء القرآني استخدم كلمة "دخلتم" وتعني الستر الذي يستر المرأة مع زوجها .. وفيه إيماء بما يمكن أن يحدث بين الزوج وزوجته ..

ولقد جاءت المفردة القرآنية في مجال لا يخدش الحياء ولا يثير الغريزة فضلًا عن الإيفاء بالمعنى المراد .. مما يجعل للمفردة القرآنية اتساقًا خاصًا يتلاءم مع المعنى المراد .. ويتآلف معه.

وكذلك قوله تعالى: (وربائبكم اللاتي في حجوركم) .. فالربائب: جمع ربيبة: وهى بنت المرأة التي تتربى في كنف زوج الأم .. والكلمة تحمل معاني كثيرة، منها التربية، والملازمة، ومداومة العشرة .. وتواصل الألفة مما يعني نفورًا تامًا، وبغضًا أكيدًا .. وتقطعًا للمودة لو حدث النكاح من الربيبة .. لأنها في هذه الحالة تشبه الابنة في مكانتها .. وتردف مفردة "حجوركم" هذا المعنى .. معنى البنوة القائمة على مداومة التربية والعشرة .. مما يستدعي أن تعلو المشاعر النبيلة فوق المشاعر الغليظة .. يقول الزمخشري في تحليله للدلالة المصاحبة لمفردة حجوركم (فائدته التعليل للتحريم وأنهن لاحتضانكم لهن في حكم الزواج وثبتت الخلطة والألفة وجعل الله بينكم المود والرحمة، وكانت الحال خليقة بأن

تجروا أولادهن مجرى أولادكم، كأنكم في العقد على بناتهن عاقدون على بناتكم)[1] ..

.. إن الأحكام التشريعية وجه من وجوه الإعجاز في القرآن، بسموه فوق كل تشريع، وبآدائه التعبيري المتآلف والمتناغم والواضح الدلالة ..

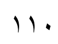
(فالقرآن قد أعجز ولا يزال بمعانيه قبل ألفاظه، معانيه التي هي مناسبة لفطرة الناس فيما حدثهم به من عقيدة سهلة، وشريعة سمحاء، وفيما استوفته من حقائق الوجود ورب الوجود)[2].

قال تعالى: (ما فرّطنا في الكتاب من شيء).

---

[1] الكشاف جـ١ ص ٢٦١.

[2] القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جـ٤ ص ٧٧، ٧٨



# الفصل السادس:

## التصوير والأرشادات
## الغيبية والعلمية



القرآن الكريم هو كلام الله المعجزة ولقد لمسنا بعض مظاهر الإعجاز في المجال الإسلوبي من حيث جمال الأداء في اللفظ والمعنى، والروعة والبيان، وجمال التصوير وتنوعه، والنسق التركيبي في الجرس الصوتي والتآلف المعنوي، وفي الحروف والمفردات والتركيب والبيان التصويري، مثله في ذلك مثل الأداء الحقيقي في مجال الشرائع والأحكام .. وعلومه وحكمه، وفي كشف الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلية، فإعجاز القرآن (إنما كان بفصاحة ألفاظه، وروعة بيانه، وأسلوبه الفريد، الذي لا يشابهه فيه أسلوب، لا من نثر، ولا من شعر، ومسحته اللفظية التي تتجلى في نظامه الصوتي وجماله اللغوي وبراعته الفنية)[1].

إلا أن إعجاز القرآن لا يقتصر على هذا الجانب كما ذكرنا سابقًا، بل هناك وجوه أخرى لإعجاز القرآن .. وسنتناول في هذا الجانب موضوعين ..

** الأول: الإخبار عن المغيبات ..

ومن هنا هذه المغيبات ما ورد عن الحرب التي ستقع بين الروم والفرس .. وهى أمور وقعت في المستقبل وما كان لأحد أن يعلمها إلا من قبل العليم الحكيم.

قال تعالى: (الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ)[2] ..

---

[1] التبيان في علوم القرآن، محمد علي الصابوني ص ٩٨.

[2] سورة الروم الآيات ١ – ٥.

سورة الروم مكية، تهدف كطبيعة السور المكية إلى معالجة قضايا العقيدة الإسلامية المتمثلة في الوحدانية، والرسالة، والبعث، ولقد بدأت السورة بالحديث عن حدث غيبي هذا الحدث أخبر عنه القرآن قبل وقوعه.

والآيات سبة وذلك حين انتصرت فارس على الروم وكان بينهما عداء مستحكم لديانة المسيحية على حين تغوص فارس في وثنيتها الدينية ولقد كانا يفرضان بطريقة أو بأخرى سيطرتهما على أطراف الجزيرة العربية فيما يجاورهما من أماكن وتشير الآيات إلى أن الروم قد انهزمت أمام جيوش فارس وشاع ال وكان ذلك أثناء الجدل الدائر بين المسلمين والمشركين في مكة حول الإسلام ولقد وجد المشركون في ذلك فرصة للنيل من عقيدة الإسلام ومناسبة للاستعلاء بالشرك وفألًا بإنتصار ملة الكفر وكانوا يقولون في تيه وعجب ألم تنتصر الفرس وهى الوثنية على الروم وهم أصحاب كتاب ؟ وتصوروا بعقلهم القاصر وبوجدانهم المختلط أنهم سيظهرون على المسلمين وسيكون لهم الغلبة وما انتصار فارس إلا إشارة إلى ذلك ..

ولقد أثر ذلك على المسلمين فاغتنموا وحزنوا لهزيمة الروم وهم أهل كتاب، فنزلت الآية القرآنية الكريمة لتبشر المؤمنين بانتصار الروم على الفرس بعد زمن قليل في بضع سنين وأثارت البشري بعض العجيب والدهشة، كيف تنتصر الروم على الفرس وقد أنهكتها الحروب وأضعفتها ؟ وكيف تنهزم الفرس وهى الدولة القوية المسيطرة ؟ ..

ولم تمض المدة حتى انتصر الروم وانهزم الفرس وتحققت نبوءة القرآن وكانت ذلك في السنة الثانية من الهجرة النبوية ..

(قال أبو السعود: وهذه الآيات من البينات الباهرة، الشاهدة بصحة النبوة، وكون القرآن من عند الله عز وجل، حيث أخبر عن الغيب الذي لا يعلمه إلا العليم الخبير ووقع كما أخبر)[1].

.. والآيات تتضمن إيحاءات تبرز مدلولات تصاحب هذا الحدث الهام .. وأول هذه الإيحاءات ذلك الترابط بين الشرك والكفر في كل مكان وزمان أمام دعوة التوحيد والإيمان، فلقد اعتبر مشركو مكة أن انتصار الفرس انتصار لهم .. والإيحاء الثاني هو إبراز قوة العقيدة في النفوس وقوة الثقة المطلقة بالله .. ذلك أن التبشير بنصر أهل الكتاب تغلغل إلى النفوس وتمكن في القلوب حتى أن أبا بكر راهن على النصر .. وكسب الرهان وهذه الثقة هى التي ملأت قلوب المسلمين قوة ويقينًا وثباتًا ..

والإيحاء الثالث (هو في تلك الجملة المعترضة في مساق الخبر من قول الله سبحانه (لله الأمر من قبل ومن بعد) والمسارعة برد الأمر كله لله .. فالنصر والهزيمة وظهور الدول ودثورها، وضعفها وثوتها، شأنه شأن ما يقع في هذا الكون من أحداث ومن أحوال مردّه كله إلى الله)[2].

ومن ثم يصبح التسليم والاستسلام أقصى ما يملكه لبشر من الأخذ بالأسباب وتتضمن الآيات نبوءة أخرى وبشرى طيبة.

تلك النبوءة تشير إلى أن المسلمين سيفرحون بنصر قريب، في الوقت الذي ينتصر فيه الروم (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) .. ولقد صدق الله وعده

---

[1] صفوة التفاسير جـ ٢ ص ٤٧١.

[2] الظلال جـ ٥ ص ٢٧٥٧.

وتحققت النبوءة وذلك حين انتصر المسلمون في موقعة بدر الكبرى .. وتنسم المسلمون هواء النصر .. والتحم النصران معًا على الكفر والشرك ..

قال ابن عباس: كان يوم بدر هزيمة عبده الأوثان، وعبدة النيران، يقول الزمخشري في تعليقه (وهذه الآية من الآيات البينة الشاهدة على صحة النبوة، وأن القرآن من عند الله لأنها إنباء عن علم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله)[1].

** وفي هذا المجال فإننا يجب أن نؤكد أن الإخبار عن المغيبات اتخذ طريقين: طريق المستقبل .. أي الإخبار عن أمور مستقبلية .. وقد تحقق ذلك جميعًا ولقد ذكرنا نموذجًا لذلك .. وطريق الماضي .. أي الإخبار عن غيوب الماضي التي اطلع عليها الرسول ولم يكن له بها علم مثل القصص القرآني ..

ولقد وردت آيات قرآنية كثيرة تتضمن المنّ على رسول الله بما جاء حول قصص الأنبياء وأممهم ومواقفهم.

قال تعالى: (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر* إن العاقبة للمتقين)[2].

والإخبار بالغيب من دلائل الإعجاز .. (ووجه الإعجاز في الماضي وقصصه أن ﷺ نشأ أُميًّا لا يقرأ ولا يكتب، ولم تكن نشأته بين أهل الكتاب، حتى يعلم بالتلقين علمهم .. وكان قومه أميين لا يسُود فيهم علم من أي طريق كان إلا أن يكون علم الفطرة والبيان، وإرهاف أحاسيسهم بالشعر والكلام البليغ)[3].

---

[1] الكشاف جـ ٣ ص ١٩٧.

[2] سورة هود الآية ٤٩.

[3] القرآن المعجزة الخالدة ص ٣٣٩.

ونزل القرآن في الوسط الأمي، يتحدث عن أمم سابقة، وأنبياء مضوا في التاريخ حملوا الرسالة، ودعوا إلى التوحيد، وواجهوا أمم الكفر والوثنية . وأظهر ما حل بالذين كفروا وضلوا، وطالبهم بأن يروا الشواهد والآثار الدالة على ذلك من بقايا الأمم الضالة ..

لقد جاء القرآن بتفصيله الصادق المحكم عن أخبار الرسل والأنبياء .. ولقد صدق القرآن فيما حكاه الرسل والرسلات .. في حين اختلفت الصورة عما ورد في كتب أهل الكتاب .. من يهودية ونصرانية، ولنذكر دليلًا قرآنيًا على هذا الجانب الغيبي الخاص بقصص الأولين .. قال تعالى: (ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ)[1].

.. الآيات الكريمات تتناول مواقف متنامية لقصة مريم وابنها عيسى عليه السلام، وهى أمور مغيبة لا يعرفها الرسول صلى الله عليه وسلم فدخلت بذلك في باب الإعجاز بالمغيبات الماضية.

وتبدأ الآيات باسم الإشارة البعيد (ذلك) .. إشارة إلى الموقف الأول في القصة وهو ولادة امرأة عمران لمريم .. ونذرها لعبادة الله .. وكفالة زكريا لها .. حتى إذا بلغت مبلغ النساء انزوت في محرابها تتعبد الله، وكان زكريا كلما دخل

[1] سورة آل عمران الآيات ٤٤ – ٤٨.

عليها المحراب يجد عندها الطعام والشراب .. وكان يدهش لما يرى وكانت تجيبه: أن ذلك رزق من الله، (إن الله يرزق من يشاء بغير حساب).

إن هذا الموقف الذي تنامى من لحظة الولادة إلى لحظة الإنقطاع إلى العبادة وما جرى فيه .. وحي أوحى به الله إلى محمد ﷺ.. وما كان يعلمه .. وتشير الآية إلى موقفين .. لم يرد في كتب النصارى .. وهو تسابق سدنة الهيكل إلى كفالة مريم، والنص هنا يشير إلى حادث إلقاء الأقلام لمعرفة من تكون مريم له، وكعادة القرآن في قصصه فإنه لا يفصل الحادث، وإنما يختار ما يريد لهدف ديني أو عظة تربوية ..

وربما كان هذا الحادث – حادث حركة رمي الأقلام – من أسرار السدنة التي لا تفشى ولا تباح فجاءت في القرآن دليلًا على الوحي، ومن ثم فقد ورد أنهم لم يجادلوا فيه.

روى كما جاء في الطبري – أن حنَّة حين ولدتها لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد – الهيكل – ووضعتها عند الاحبار وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة فقالت لهم: دونكم هذه النذيرة، فتنافسوا فيها لأنها كانت بنت إمامهم ثم اقترعوا فخرجت في كفالة زكريا فكفلها، وتنتقل الآيات إلى موقف قصصي آخر وهو البشارة بمولد المسيح ..

فها هو جبريل يبشر مريم بمولود يكون بكلمة من الله دون واسطة بشرية، يكون سيدًا في الدنيا والآخرة .. وتجرى المعجزات على يديه طفلًا وكهلًا.

يقول الزمخشري (ومعناه .. يكلم الناس في هاتين الحالتين كلام الأنبياء من غير تفاوت من حال الطفولة وحال الكهولة التي يستحكم فيها العقل ويستنبأ فيها الأنبياء)[1].

.. وتقف مريم مندهشة متعجبة وتتساءل كيف آتي بولد دون زوج! .. ويأتيها الجواب .. إن أمر الله عظيم لا يعجزه شيء فإذا أراد شيئًا حدث دون تأخر ..

ويمضي السياق ساردًا صفات عيسى عليه السلام .. إذ تؤكد الآية أن الله أعطاه الكتاب وصواب الرأي وحفظ التوراة والأنجيل .. ثم يجتبيه رسولًا إلى بني إسرائيل .. (لقد بشرت الملائكة مريم بكلمة من الله اسمه المسيح عيسى بن مريم فتضمنت البشارة نوعه واسمه ونسبه، وظهر من النسب أن مرجعه إلى أمه، ثم تضمنت البشارة كذلك صفته ومكانه من ربه .. كما تضمنت معجزة تصاحب مولده .. ولمحة من مستقبله .. وسمته والموكب الذي ينتسب إليه)[2]..

وكشفت الآية موقف الفتاة الحريصة على الشرف والكرامة في موقف المفاجأة المدهشة .. وأبرزت الانفعال الذي يطغى على الأنثى في مثل هذا الموقف فاتجهت إلى الله ضارعة أن يفك لها هذا اللغز ..

وحين يأتي الجواب برد الأمر إلى الله، تزول الحيرة ويذهب العجب، ويطمئن القلب ويفيد النص أن رسالة عيسى كانت لبني إسرائيل، ومن ثم فإن التوراة المشرِّعة والمنظمة لحياة الجماعة الإسرائيلية هى كتاب عيسى عليه السلام، فضلًا عن الإنجيل الذي تضمن إحياء الروح وإيقاظ الضمير.

---

(1) الظلال جـ ١ ص ٣٩٨.

(2) الظلال جـ ١ ص ٣٩٨.

• ولقد جاءت القصة في إسلوب سردي وحواري مما أثار الإنفعال الوجداني في نفس القارئ، وتضمنت نقلات في الزمان، واختزالًا له، فمرة نحن أمام مريم طفلة، تحتاج إلى الرعاية والكفالة، ومرة فتاة ناضجة تتلقى البشارة بميلاد طفل.

وفي المرة الأولى: نقف على حركة الصراع حول الكفالة .. وحدة الانفعال، أو الآراء المتصارعة .. تكشف المفردتان (ألقوا) و (يختصمون)، تلك الحركة المنفعلة الراغبة في فعل الكفالة، كما تكشف رغبات سدنة الهيكل في الاستئثار بهذا الفعل تقريبًا ..

وفي المرة الثانية: نقف بعد نقلة زمنية أمام موقف يتسم بالدهشة والغرابة والاصطفاء معًا، فمريم الفتاة المتعبدة تفاجأ بملك يبشرها بمولد طفل منها .. وهنا تنداح الانفعالات البشرية المختلطة والممزوجة بين الحيرة والقلق والخوف .. ويبرز هذا السؤال كيف ؟ .. ويحمل السؤال كل الانفعالات التي تخضع لها الأنثى في مثل هذا الموقف ..

ولأن الموقف أنثوي فجاء التعبير (ولم يمسسني بشر) للإيفاء بالمعنى المراد، دون أن يجرح المشاعر، أو يتخطى جمالية الأداء في الخطاب .. وهذا التعبير الكِنَائي .. يحمل دلالات التعفف والتحصن مما يثير في ذهن مريم حيرة على حيرة وخوفًا على خوف .. ومن ثم فإن عبارة القرآن (كذلك الله يخلق ما يشاء) .. جاءت لترد الأمر كله إلى الله .. ولتزيل الحيرة والشك ولتبعد الخوف، ولتهيئ مريم للحظة التلقي ...

.. ولقد جاء التعبير القرآني في قصة يحيى على هذا النحو (كذلك الله يفعل ما يشاء) .. فالآيتان متشابهتان في النظم الأسلوبي ولكن الفعل الحقيقي

اختلف: ففي الأول ورد اللفظ (يخلقُ) والسياق القرآني يعطي المفردة دلالتها وسرها التركيبي ..

.. فخلق عيسى من غير أب إيجاد واختراع جاء على غير ما يجيئ البشر من التقاء بين الذكر والأنثى، طبيعة الحياة القائمة على التزاوج بين نوعين يكمل بعضهما الآخر، ومن ثم فإن خلق عيسى لم يأت عن الطريق الطبيعي الذي يستدعي وجود الرجل والمرأة .. وعلى هذا فقد ناسب أن تأتي في السياق القرآني مفردة "يخلق".

يقول سيد قطب رحمه الله (إن الله شاء أن ينشئ حياة على غير مثال، فأنشأها وفق إرادته الطليقة التي تنشئ الحياة بنفخة من روح الله، ندرك آثارها، ونجهل ماهيتها) ..

ولقد مضى مألوف الناس على قاعدة أن للنشأة الإنسانية طريقًا معروفًا وهو طريق إلتقاء الذكر والأنثى .. حتى شاء الله أن يخرق القاعدة، فتتلقى الأنثى .. الأنثى فقط النفخة التي تنشئ الحياة ابتداءً.

.. أما في الآية القرآنية الخاصة بيحيى .. فالأمر يختلف .. فالزوج والزوجة موجودان .. ولكن في كل واحد منهما علة .. فالزوج شيخ كبير هدته الشيخوخة وأضعفته .. إنه زكريا النبي الذي كفل مريم وأخلص لله ..

والزوجة فقدت خصوبة الأنثى الولود إنها عاقر لا تنجب .. إن الأمر يبدو أمام العين البشرية مستحيلًا، ولذلك فقد علا السؤال مدهوشًا وحائرًا في قول زكريا، يذكرنا بنفس الدهشة والعجب اللّذيْن صاحبا مريم .. قال زكريا لربه في حيرة العبد المؤمن:

﴿قال ربّ أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر، وامرأتي عاقر، قال، كذلك الله يفعل ما يشاء﴾[1].

إن قصة ولادة يحيى من عجوز عاقر وشيخ قد بلغ من الكبر عتيًا شيء خارق للعادة .. ولذلك لاءم اللفظ القرآني (يفعل) .. السياق العام .. لوجود الزوج والزوجة والعائق فيها .. فناسب أن يأتي الفعل المعجز لوجود أدواته الطبيعية، بخلاف السياق في قصد مريم وولادة المسيح .. فليس هناك وجود طبيعي للأدوات الفاعلة .. فليس ثمة إلا أنثى بما لاءم الخلق الفعل كله ..

.. ولا يفوتنا أن نذكر أن جميع القصص التي وردت في القرآن الكريم إنما هى باب من الإخبار عن المغيبات في الماضي، وقد أطلع الله ورسوله محمدًا ﷺ عليها .. ولم يكن له علم بها .. مما يدل على إعجاز القرآن وأنه من عند الله وأنه ليس من كلام البشر كما ادعى الكفرة الجاهلون.

الثاني: الإشارات العلمية ..

القرآن الكريم كتاب الله ودستور المسلمين في إقامة حياتهم على أساس من التشريع الإسلامي المحكم .. وهو يهدي ويرشد إلى السبيل الحق، ويشرع من الأحكام ما فيه صلاح الأمة ..

ومع ذلك فثمة إشارات علمية دقيقة سبق إليها القرآن مكتشفات العلم الحديث .. فلم تخل آياته من إشارات إلى مجالات في الطبيعة والطب والنفس والتكوين وغيرهما، مما يدل على إعجازه العلمي ..

---

[1] سورة آل عمران الآية ٤٠.

فمحمد ﷺ كان أميًا، وقد نشأ في بيئة بعيدة عن مظاهر التحضر والتمدن، مما ينتفي معه فهم الإشارات العلمية التي وردت في القرآن .. فما جاء في القرآن من معلومات علمية لم تكن معلومة في عصره .. ولم تكْتشف أسرارها إلا منذ عهد قريب .. مما يؤكد هذا الجانب الإعجازي أنه وحي من الله.

يقول "موريس بوكاي" ! (وإن القرآن الكريم ليس فيه مسألة واحدة تناقض العلم الحديث، بل إن كل ما ورد فيه من آيات وإشارات في علم الفلك وعلوم الحيوان والنبات، وعن التناسب البشري .. يوافق تمام الموافقة معطيات المعارف العصرية التي كانت مجهولة في عصر النزول)[1].

والقرآن الكريم لا يهدف إلى تقرير حقائق علمية، لأن مقصده الجوهري ديني، وهو إذ يتحدث عن القدرة الإلهية فإنه يدعو إلى التدبر في ملكوته، وتتخلل الدعوة الإلهية إشارات علمية .. وهذه الإشارات القرآنية تعد حدثًا جديدًا في الوحي، جديرًا بالاهتمام.

والقرآن الكريم وهو يشير إلى هذه الإشارات العلمية يشفع كلامه بالتأكيد على منفعته للناس ..

ففي قوله تعالى: (ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقًا* وجعل القمر نورًا وجعل الشمس سراجًا)[2].

وفي قوله تعالى: (وبنينا فوقكم سبعًا شدادًا* وجعلنا سراجًا وهاجا)[3].

---

[1] انظر كتاب القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جـ ٤ وعرض المؤلف الفاضل لكتاب بوكاي.

[2] سورة نوح الآيات ١٥ – ١٦.

[3] سورة النبأ الآيات ١٢– ١٣.

في هاتين الآيتين وصف الله القمر بأنه منير والشمس بأنها سراج وهاج (ومعلوم أن الشمس نجم ينتج بفعل احتراقه الداخلي حرارة شديدة وضوءًا، وأن القمر الذي لا يضيء بنفسه يعكس الضوء الذي يتلقاه من الشمس .. وليس في القرآن شيء يناقض ما نعرفه حول هذين الجرمين السماويين)[1].

والضياء والطاقة عاملان لازمان لحياة الإنسان والنبات والحيوان، فالشمس مهدت بإذن الله للحياة على الأرض، فجعلتها صالحة لأن يعيش فوقها الكائن الحي .. وبالشمي تتم الدورة المائية المعروفة .. مما يؤكد ارتباط الإشارات العلمية بما ينفع الإنسان في تنقله برًا وبحرًا، واهتدائه ومعرفته عدد السنين والحساب.

** ولننظر إلى السياق القرآني الذي وردت فيه الآيتان في سورة نوح فالسياق يشير إلى نعم الله سبحانه على خلقه، ويدعو إلى التدبر في آثار القدرة الإلهية والرحمة الربانية في الكون.

** قال تعالى: (مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا)[2].

• الآيات تذكير بنعم الله .. وقد وردت في قصة نوح .. وبدأت الآيات بأسلوب يتضمن التوبيخ .. في تعجب من أمر هؤلاء المعاندين الذين دعاهم نبي الله نوح

---

[1] القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جـ ٤ ص ١٣٩.

[2] سورة نوح الآيات ١٣ – ٢٠.

إلـى التوحيـد والهدايـة فواجهـوه بالعنـاد والكفـر .. فجـاء التسـاؤل المصـحوب بالدهشة والتعجب ليبين أن هؤلاء القوم لا يخافون عظمة الله وسلطانه: قال ابن عباس في معنى الآية: أي ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته:

- إن قصة نوح تجربة من تجارب الدعوة، وشوط من أشواط المعركة الخالدة بين التوحيد والكفر، كما أنها تكشف عن عناية الله ورحمته بالإنسان، وكذلك الجهد المضني من حملة الرسالة في تبصير البشرية الضالة.

وهذه التجربة المريرة التي مرَّ بها نوح مع قومه تُعْرَضُ على رسول الله ﷺ فيرى فيها صورة من الكفاح لإقرار الحق من جانب، وصورة العناد من جانب آخر .. وتحمل البشرى للمؤمنين ممثلة في عناية الله بالقلة المؤمنة، كما تحمل الإنذار بالمصير السيء للمكذبين الضالين ..والآيات فصل في قصة نوح مع قومه .. وهى توجه أنظار القوم إلى آيات الله ونعمه في النفس والكون المحيط بهم.

والآية الأولى: التي ذكرهم بها نوح تتضمن قوله تعالى (وقد خلقكم أطوارًا) ومقصود الأطوار هو تطور خلق الجنين من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى هيكل إلى خلق كامل ..

وهذه المراحل التكوينية للإنسان وردت مجملة في الآية – ولكنها جاءت مفصلة في آيات كثيرة .. وفي هذا الإجمال والتفصيل ما يشير إلى الحقائق العلمية التي أكدها العلم الحديث في مختبراته وبوسائله العلمية الدقيقة ..

قال تعالى: (فلينظر الإنسان مم خلق* خلق من ماء دافق)[1]، والماء الدافق هو المني .. والمني يحمل ملايين الحيوانات السابحة فيه .. وبين هذه الملايين .. يدور سباق رهيب إلى البويضة الأنثوية للقاحها .. ولا يصل إلا حيوان منوي يعلق بها .. ومن ثم جاءت المرحلة الأولى – النطفة، ثم يخرج من النطفة (العلق) .. ذلك الحيوان المنوي الذي يعلق ببويضة المرأة ويمتص غذاءه منها، وحين يتم التلقيح تتعلق البويضة بجدار الرحم وتبدأ في امتصاص غذاءها .. قال تعالى: (خلق الإنسان من علق) وفي اللغة: (العلقةُ دودة في الماء تمص الدم والجمع عَلَقٌ وعَلِقت المرأة حبلت، والعُلَّيق: نبت يتعلق بالشجر، وأعلق أظفاره في الشيء أنشبها[2].

ومن ثم فإن الحيوان المنوي يعلق بالبويضة وينشب بها ويستمسك ... ثم تصبح العلقة في نموها وتطورها كقطعة من لحم قدر ما يمضغ لم تتشكل بعد .. وهو ناتج عن الانقسام والتطور من خلق إلى خلق قال تعالى: (فخلقنا العلقة مضغة) .. ثم يبدأ تطور الجنين في مراحله التالية .. قال تعالى: (فخلقنا المضغة عظاما).

(إن المضغة ليست لحمًا بل هى خلايا متلاصقة وظيفتها تكوين اللحم والعظم والجلد والشعر والأسنان وكل ما يكوّن الجنين من أعضاء وأحشاء)[3]، ولقد ثبت علميًا أن العظام تنشأ بعد تطور المضغة مباشرة، وأول ما ينشأ منهما هو العمود الفقري والجزء المركزي من هذا العمود.

---

[1] سورة الطارق الآيتان ٦، ٧.

[2] مختار الصحاح.

[3] معجزة القرآن، نعمت صدقي ص ١٤١.

وهذه الحقيقة لم تعرفها البشرية إلا بعد نزول القرآن الكريم بقرون طويلة .. وبعد هذه المرحلة يبدأ اللحم في تشكله فيكسو العظام .. قال تعالى: (فكسونا العظام لحما)، فاللحم ينشأ بعد العظام .. والتطور مستمر ومتتابع يفيده حرف الفاء .. حتى يتخلق الجنين خلقًا كاملًا .. وهو يحتاج إلى زمن لتخلقه .. وتمام تكوينه، قال تعالى: (ثم أنشأناه خلقًا آخر) .. وهكذا فإن الآية القرآنية المجملة .. والآيات الأخرى المفصلة .. قد وصفت وصفًا دقيقًا تطور خلق الجنين من أول لحظة من الحمل حتى يخرج إلى الدنيا إنسانًا كاملًا سويًا .. والآية تشير إلى حقيقة علمية ثابتة .. وهى إشارة إلى وجه من وجوه الإعجاز القرآني .. يقول سيد قطب في وقفته أمام الآيات من سورة نوح، (ويمكن أن يكون مدلولها ما يقوله علم الأجنة، من أن الجنين في أول أمره يشبه حيوان الخلية الواحدة، ثم بعد فترة من الحمل يمثل الجنين شبه الحيوان المتعدد الخلايا، ثم يأخذ شكل حيوان مائي، ثم شكل حيوان ثديي، ثم شكل المخلوق الإنساني، وهذا أبعد عن إدراك قوم نوح، فقد كشف حديثًا جدًا)[1].

الآية الثانية: بعد أن وجه نوح قومه إلى النظر في أنفسهم، وجههم إلى كتاب الكون المفتوح .. للتأمل والتدبر في دلائل القدرة والوحدانية.

لقد طالب نوح قومه أن يتملوا عظمة القادر، وينظروا في اعتبار وتفكير وتدبر إلى أن الله خلق سبع سموات، متطابقة بعضها فوق بعض في إتقان بديع .. وجعل فيها القمر منوّرًا لوجه الأرض فيخفف من ظلمة الليل، كما جعل الشمس سراجًا يستضيء به أهل الدنيا، ودلالة اللفظ توضح المعنى.

---

[1] الظلال جـ ٦ ص ٣٧١٤.

ولما كان نور الشمس أشد وأتم، وأكمل في الانتفاع من نور القمر عبر عن الشمس بالسراج لأنه يضيء بنفسه، وعبر عن القمر بالنور لأنه يستمد نوره من غيره، ويؤيد ما تقرر في علم الفلك من أن نور الشمس ذاتي فيها ونور القمر عرضي مكتسب)[١].

وهذا التوجيه يكفي لإثارة التطلع لإدراك القدرة المبدعة وهو المراد من التوجيه، ولكن الآية كما رأينا تتضمن فضلًا عن هذا التوجيه الإشارة العلمية .. الداخلة في إطار علم الفلك ..

(ونحن نعرف أن النجوم كالشمس، أجرام سماوية تكمن فيها ظواهر فزيائية شتى نلاحظ من بينها ظاهرة إنتاج الضوء .. فهي بذلك أجرام مضيئة بذاتها، ويتكرر في القرآن لفظ نجم وجمعه نجوم .. والكواكب لا تضيء بنفسها وهي تدور حول الشمس .. وأحسن تعريف في القرآن الكريم لكلمة الكوكب هم ما ورد في آية مشهورة تنطوي على معاني روحية عميقة ..

وهي (الله نور السموات والأرض، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دُرِّي)[٢] .

والمقصود قذف نور على جسم يعكسه (والجسم هنا هو الزجاجة) فيجعله ساطعًا كالدر شأنه في ذلك شأن الكوكب المنير بضوء الشمس)[٣].

.. وتمضي الآيات البينات التي وجهها نوح إلى قومه لعلهم يدركون القوة القادرة الكامنة وراءها .. حيث وجه نوح قومه إلى النظرة في نشأتهم من الأرض وعودتهم إليها بالموت ..

---

[١] صفوة التفسير جـ ٣ ص ٤٥٣.

[٢] سورة النور الآية ٣٥.

[٣] انظر رأي بوكاي في القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته جـ٤ ص ١٣٩/١٤٠.

ولقد تردد – في آيات قرآنية – التعبير عن نشأة الإنسان بالإنبات من الأرض، وهو تعبير موحٍ غاية الإيحاء يتخذ من التصوير أداة لإبراز المعنى المراد.

والتصوير يعقد لنا صورة مماثلة تجمع بين طرفين .. فنشأة الإنسان كنشأة النبات .. ولقد اقترن هذان الطرفان معًا في آيات كثيرة ..

ولعلنا نلاحظ أن هذه الصورة الجامعة للإنسان والنبات، ترد غالبًا في سياق نشأة الإنسان وتطوره من مرحلته الجنينية إلى سوائه الكامل، وتربطه تصويرًا بحياة النبات وتطوره على الأرض.

قال تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[١].

وردت في هذه الآية القرآنية إشارة علمية أخرى تدور حول المضغة فالمضغة المخلقة هى الجنين، وغير المخلقة هى المشيمة .. فلا جنين بلا مشيمة وهى التي تمده بالغذاء من دم الأم وتلازمه في الرحم وتخرج معه.

"تترتب هذه الخلايا إلى كرتين ويزداد حجمهما بالانقسام، وعند الخط بين هذين الكرتين يوجد أول شيء يمكن أن يسمى جنينًا وهو عبارة عن جسم مفلطح كُمَّثْريّ الشكل أو بيضاوي الشكل ويسمى بالقرص الجنيني، وبعد عدة تغييرات يبدو كأنه دودة ثم تكبر هذه الدودة وتكبر حتى تصير في حجم المضغة

---

[١] سورة الحج الآية ٥.

هذا هو الجزء المخلق في الآية (من مضغة مخلقة) أما المضغة غير المخلقة فهى الأجزاء الباقية من الكرتين خارج منطقة القرص الجنيني وهى التي ستكون المشيمة (الخلاص)[1].

وتشير الآيات الكريمة إلى أن الإنسان حين يعمر طويلًا يرتد طفلًا في عواطفه ووعيه ومعلوماته، وفي ذاكرته التي لا تمسك شيئًا، طفلًا في أخذه الأحداث والتجارب، لا يربط بينها رابط .. ثم يفلت من عقله ووعيه ذلك العلم الذي تخايل به وتطاول.

وتربط الآية هنا –كما ربطت الآيات في سورة نوح– بين أطوار حياة الإنسان وبين مشاهد الخلق والإحياء في الأرض والنبات، فالأرض هامدة ثم ينزل الماء عليها فتزهو وتربو.

ومرة أخرى نعود إلى جمال التصوير القرآني في حين يرسم لنا صورة الأرض الجافة وقد تحركت بفعل الماء حركة اهتزاز فيه التشرب، والحركة، والانتفاخ والتفتح ثم خروج النبات زاهيًا جميلًا يبهج العين.

والقرآن ينشئ تصويرًا حقيقيًا في قلب المؤمن بإدراك العلاقة بين الأرض والإحياء، فالناس الذين نبتوا من الأرض يعودون إلى جوفها مرة أخرى، يعيدهم كما أنبتهم، فيختلطون بالتراب، ثم ينبتهم مرة أخرى حيث الحساب والجزاء.

وهذه الصورة الحسية التي ترسم لنا حركة الحياة كلها من البدء إلى المنتهى .. تجعل القلوب تستشعر قدرة الله وعظمته، وتوضح حركة الحياة والبعث توضيحًا قائمًا على إدراك العلاقة بين حسيين يدركان ويقعان تحت

---

[1] معجزة القرآن، نعمت صدقي ص ١٤٦.

المشاهدة والتجريب، وهما خلق الإنسان، ونمو النبات، فالأصل واحد .. والبذرة توضع في التربة .. ويخرج الطفل كما يخرج من جديد .. لتبعث يوم القيامة .. هذا التوجيه الحسي، بعقد الصورة بين أطرافها .. يدعو إلى التأمل والتدبر في قدرة الله .. والإيمان به وهو التوجيه الذي أراده نوح من قومه.

(وهكذا يتحدث القرآن عن القرابة بين أبناء الحياة جميعًا، فيسلكهم في آية واحدة من آياته، وإنها للفتة عجيبة إلى هذه القرابة الوثيقة عجيبة إلى هذه القرابة الوثيقة وإنها لدليل على وحدة عنصر الحياة، وعلى وحدة الإرادة الدامغة لها هنا وهناك في الأرض والنبات والحيوان والإنسان .. وتلتقي نواميس الخلق والإعادة، ونواميس الحياة والبعث، ونواميس الحساب والجزاء وتشهد كلها بوجود الخلق المدبر القادر الذي ليس في وجوده جدال)[1] ..

- ثم يوجه نوح قومه إلى نعمة إلهية أخرى وهى نعمة تيسير الحياة على الأرض فلقد جعل الله الأرض فسيحة ممتدة وممهدة لطرائق الحياة المختلفة.

.. والآية تتضمن تصويرًا حسيًا جميلًا، يأخذ بوسائل الإدراك البشرية، ويقتحم مكامن العقول المدركة، ليحدث الهزة الإيمانية في النفوس – فهذه الأرض على امتدادها وتنوعها .. هيأت للإنسان – بإرادة الله – حياته .. إنها تبدو في استوائها، وتعم الإنسان بها، وسلوكه فيها طرقًا وتنقلًا واستقرار حياة، كالبساط الذي يمتد ويفرض، ويتنعم به الإنسان .. ففي الجبال الراسيات وفي الوديان المنبسطة، وفي الدروب الممتدة، وفي الانفساح الهائل، وفي التوازن بين اليابسة والماء، مشاهدات توجه الإدراك إلى التأمل في قدرة الله ونعمه.

---

[1] الظلال جـ ٤ ص ٢٤١١.

"قال الألوسي: وليس في الآية دلالة على أن الأرض مبسوطة غير كروية، لأن الكرة العظيمة يرى كل من عليها ما يليه مسطحًا"[١].

فالأرض نعمة الله لعباده، مذللة لخدمة البشرية، تبدو للعين في حالة استواء واستقرار ولكنها في الحقيقة مسرعة غاية السرعة، ومع هذه السرعة والدوران الهائل فإنها ذلول تحافظ على ما فوقها .. فهى تشد ما عليها أثناء حركتها الهادرة .. وذلك بفعل الجاذبية.

قال تعالى في سورة الملك (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولًا) .. وكما أن الأرض ذلول مهيأة لخدمة الحياة عامة .. فهى أيضًا مثمرة مخصبة تخرج مما تحويه ما يفيد البشر ويجعل الحياة تنمو وتستمر، ثم يصبح من الإعجاز هذا الإعداد الإلهي لكوكب الأرض كي يصلح لدوام الحياة إلى أن يشاء الله، وهذه الأرض التي تبدو منبسطة كالبساط، هى في الحقيقة ذات شكل كروي .. تدور حول نفسها وحول الشمس بعد انفصالها عنها .. قال تعالى: (والأرض بعد ذلك دحاها)[٢]. وقال تعالى: (والأرض وما طحاها)[٣].

والآية تدل على أن الأرض انفصلت عن الشمس .. وأنها انتزعت منها، ولقد ورد في اللغة أن دحا الشيء بسطه، ودحا المطر الحصى عن وجه الأرض، أي نزعه، كما جاء في اللغة أن طحا بمعنى بسط مثل دحا.

والله دحا الأرض فمهدها وبسط قشرتها وجعلها صالحة للحياة والنبات، وأخرج منها الماء والمرعى لدوام الحياة واستمرارها.

---

[١] صفوة التفاسير جـ ٣ ص ٤٣٥.

[٢] سورة النازعات الآية ٣٠.

[٣] سورة الشمس الآية ٦.

(والنظريات الفلكية الحديثة تقرب من مدلول النص القرآني حين تفترض أنه قد مضى على الأرض مئات الملايين من السنين وهى تدور دوراتها، ويتعاقب الليل والنهار عليها، قبل دخوها، وقبل قابليتها للزرع، وقبل استقرار قشرتها على ما هى عليه من مرتفعات ومستويات)[١].

وقال تعالى: في سورة النازعات (أخرج منها ماءها ومرعاها)، فالماء هو أساس الحياة، والحياة لا توجد في شيء جاف، لأن الجفاف يوقف التغييرات الكيميائية التي هى شرط أساسي لتغيرات الجسم الحي ..

جعل الله سبحانه الماء سببًا لاستمرار الحياة وضرورة لها (فإنه سبحانه خلق الإنسان من طين، والطين ما هو إلا ماء وتراب، كما خلق سبحانه كل جنين في بطن أمه من إنسان وحيوان من ماء دافق ومن نطفة أمشاج وخلق كذلك كل نبات على الأرض من تراب وماء ولم تبدأ الحياة على سطح الأرض إلا من وجود الماء)[٢].

فالماء أصل الحياة وسببها، ودليل حفظها، قال تعالى (وجعلنا من الماء كل شيء حي)[٣].

والعلم أثبت هذه الإشارة العلمية في القرآن الكريم، فمن الثابت أن (أصل الكائنات الحية قد تكون في الماء .. وأن كل الكائنات الحية تتركب أساسًا من

---

[١] الظلال جـ ٦ الآية ٣٠.

[٢] معجزة القرآن ص ٤١.

[٣] سورة الأنبياء جزء من آية ٣٢.

ماء)[1]، ولقد كشفت الإشارات العلمية في القرآن ما انتهى إليه العلم في هذا المجال.

.. إن القرآن الكريم كتاب الله أنزله على محمد ﷺ هداية للناس جميعًا، واقتضت الحكمة الإلهية أن ترد فيه الإشارات العلمية في أسلوب موجز موحٍ لا يصطدم مع المتلقي الأول ولا ينفي الحقيقة العلمية أيضًا .. تلك الحقيقة الواردة عبر مشاهدات حسية معروفة – تخاطب المدارك العقلية .. وهذه الحقيقة العلمية المشار إليها يسَّرها الله فكشفت عن سرها حين تحققت الأسباب وارتقت العلوم ..

وصدق الله العظيم حين قال في محكم آياته

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) ..

صدق الله العظيم

[1]) الإسلام والنظر في آيات الله الكونية د. محمد الشرقاوي ص ٩٧.

# فهرس